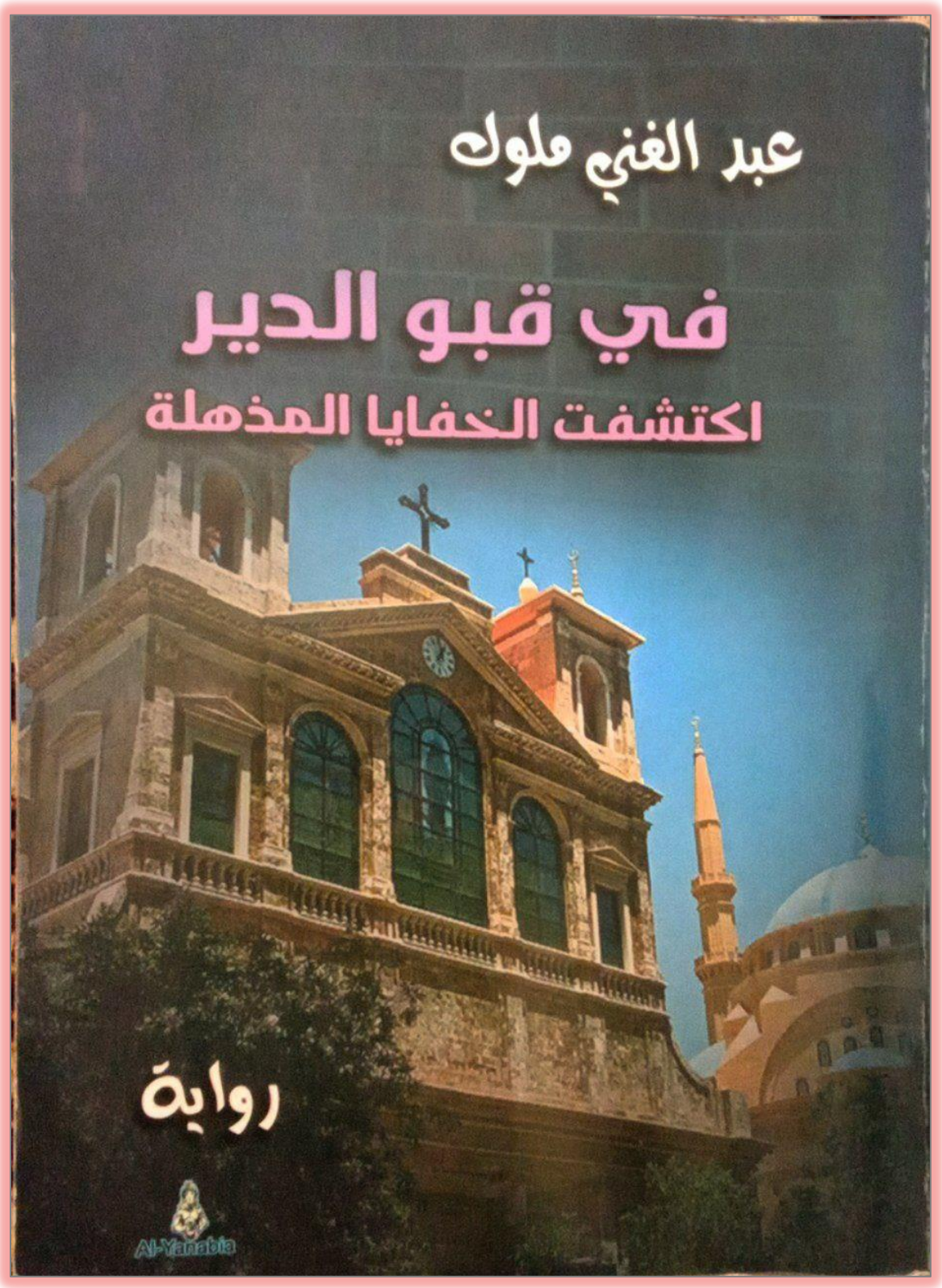
عبد الغني ملوك
في قبو الدير
اكتشفت الخفايا المذهلة
رواية
Al-Yanabia

عبد الغني ملوك

في قبو الدير اكتشفت الخبايا المذهلة .

رواية

(1)

أصبح مألوفا لياسر الخوخة سقوطه المتكرر، بفعل الطعنات الصديقة ، كجيش خسر كثيرا من جنوده وعتاده بفعل نيران صديقة فتعايش مع الزمن الردي كمرض مزمن الأحلام تقلصت متدرجة في الانكماش حتى وصلت لدرجة التقزم ... في البدء كان يحلم بتغيير العالم، وبمدينة طوباوية تحكمه.. أمضه الظلم فكره التفاوت ، وناضل بهمة قل نظيرها ... الخيانات المتكررة إدمان مدمر .

لكن إعادة تقييم ودراسة الواقع جعلت حلمه يتواضع . فقلص حلمه إلى تغيير الأقاليم المجاورة ، ثم تقلص الحلم أيضا ليشمل الوطن الصغير فقط . آخر المطاف لم يبق له إلا ترميم أسرته التي انهارت بانحراف زوجه سارين وخيأنتها ، لقد هدمت البناء وباعت الشرف .

من أجل حقيبة وزارية ثم هويت الجنس والحشيش ، فتفرغت لهما وأدمتنهما ولداه كفاح وثائر ، هربا إلى الأمام، وانضما إلى المجاهدين في العراق الذي سقط تحت ضربات التحالف، واليورانيوم المنضب ..

لماذا حدث الذي حدث ؟ ولماذا انطفأت الشموع مع أنه حاول أن يحميها من الريح ؟ ولماذا ذبل الحب كزهرة لفحها اللهيب : مع انه حماها بجسده وكيانه ؟ هل تم ذلك بتغيير الأماكن ، التي أجبر على تركها وافسر ؟ ام انه أوقع لحنا على غيتار فوق احتماله ، فانقد وتره،

كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس يملان. العين لا تشبع من النظر والعقل ما انفك يحلل بلا نتيجة

هل كان مرد ذلك إلى حماقات رفيقه في النضال مريد الخشن وقراراته الخاطئة ، التي انحاز إليها في البدء متوهما بحلم أيديولوجي رائف أم إلى كلام الشيخ حامد الأغبر الذي حيره وشكله بما كان يعتقد أنه يقيني وثابت . رغم كل ذلك لم يستطع إيصاله إلى الضفة الأخرى ، لكنه زعزع جميع المفاهيم التي كأنت له مسلمات ، هو الآن يعيد هيكلة العقل و يبحث عن الله .

ها هو مزيد الخشن ، يرقد الآن في قبره ، مهشم الوجه والعنق ، من ضربة زجاجة ويسكي مكسورة القعر ، في ملهى غنت اليه جمانة وادمنت . اكان على مزيد فعل ما فعل ، أم كان عليه أن يتخنزر و يدع جمانة ، تنام في حضن الوحش المخمور ؟ فضل أن يقتل وهو يدافع عن زوجته المغنية ، كما يدافع الجاهلي عن ظعينته . هي أيضا لم تسلم من التشوه الفظيع ، وربما كان الموت أرحم ، وابن النضال الثوري وصراع الطبقات ، الذي تبخر كحلم مقيت لدى مزيد الخشن ؟ يبدو أنه لم يكن عقائديا بل ها و المغامرات . عكس ياسر الذي دخلت

عقيدته الشرايين كما الأفيون فلم ينعم يوما بالسكينة ، بل أحس بنقل الزمن يزحف على صدره . لقد حل فصل الكهولا ، ومازال يسعى لهدف يبدو انه غير قابل للتطبيق . هل كان كل ذلك يفعل الخيانات المتكررة من ذوي القربى ؟ أو من الحب الذي أودعه أمانة عند سارين ، فخانت الأمانة وسقطت ملفوفة بدخان المخدر ، وحلم

زائف ومجهض؟ وجويل الناصوري التي ترقد الآن في غرفة الفندق المجاورة للشرفة ، التي يجلس فيها متأملا النهر، والتي تعبت من قطع مئات الكيلومترات من بيروت إلى

دير الزور . هل كأنت احسن حظا منه ؟ والتي آمنت بالعقيدة نفسها والتي تجددت في شخص حبيبها مهيار الأسعد، والتي مازالت رهينة زوجها المدفون ، والذي اغتيل بسبب قلمه فراح يتحلل ، لكنه رغم ذلك يشدها إليه بخيوط وهمية قوية . لقد اغتيل منذ سنوات قليلة ، اغتيل بمتفجرة بثت ليلا بسيارته، وبقي الفاعل مجهولاً ، بل ربما كان معروفا ، لكن لا يمكن ليد أن تجرؤ فتطاله . وهل يمكن لياسر بعد مأساتها تلك أن ينسج وإياها قصة حب حقيقي ينسيه الخيانات والتصاهات والماضي الأليم ؟ لكن ما فائدة كل ذلك وولديه في جحيم بغداد يحترقان ؟ هل هما الآن فوق التراب أم تحته ؟ هل هما رماد ام تبخرا كماء البحر ؟

كان يجلس في شرفة الفندق متأملا النهر الزمن ... نهر الفرات

العظيم ، بدا هادئا يسير بثقة إلى هدف ابدي ، لكنه لم يستطع أن يملأ البحر فيتخمه... كم مر على هذا النهر من التوام ذهبوا واندثروا . وبقي خالدا يصب في البحر الذي لن يمتلئ... بابليون و آشوريون يونانيون و رومان و فرس ، مغول و أتراك . وبقي النهر صافيا ونقيا و قويا و اندحروا . حمل النهر الإسكندر المحموم ، بفعل السم الذي اتاه مندسا بنعل فرس ، مرسلاً من أقرب الناس إليه : من امه أو من زوجها فيليب ، فتناوله مع الخمر وغفل حرصه عن حمايته ، لأن قدره الذي أعطاه ملكا عظيما لا حدود له سلبه بلحظة خيانة ،

حياته ولما يزل في صباه ، فتهادى مع الزورق وحيداً على صفحة النهر فذهب به النهر إلى الخلود ... وهذا النهر الذي شهد أيضا موت آخر خليفة عباسي ، الذي قال كلمته المشهورة : (بغداد تكفيني) متنازلاً للغزاة البرابرة عن كل الأقاليم ، تاركا شعبه لمصيره ، فمات في كيس مربوط وهرس بجزمات العسكر. لكن النهر بقي قويا هادئا متزنا ، و لم يستطع أن يتخم البحر .

مسافات طويلة قطعتها البعثة التلفزيونية المؤلفة من سيارتين من بيروت إلى دير الزور. والتي كأنت جويل الناصوري رئيسة لها . والتي ضمت نائبها ياسر الخوخة ، و أبا أرز صاحب المهمات المتعددة والصعبة ، و التي ضمت أيضا فيما ضمت ، فنيين اثنين للتصوير و الإرسال ، و لن تستطيع هذه البعثة تنفيذ مهمتها إلا عندما تصل

المنطقة الخضراء في بغداد. مسافات طويلة خطرة و أهوال ، عليهم جميعا تخطيها . و ما فائدة الموافقة التي حصل عليها أنطون شركس من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في بيروت ، بالسماع لمحطته بالبث من هناك ، إن لم تستطع البعثة الدخول بسلام إلى المنطقة الخضراء ، عبر أهوال الجحيم والسيارات المفخخة . لكن ما يشغل بال ياسر الخوخة الآن ، ليس البث ولا الإرسال بل تشغله مهمته السرية . التي تتلخص بالعثور على ولديه بين جحيم ملتهب .

خرجت جويل من غرفتها المجاورة للشرفة متجهة إليه . كأنت ترتدي ثوبا أبيض مطبعا بأزهار الكيوي . لقد زال عنها التعب بعد أن أخذت حمامها الساخن ، و نامت لأكثر من ساعتين ، وها هي الآن في

كامل أناقتها و بهائها تتهادى إليه بدلال ، ولكن ماذا يفيد الجمال والدلال في عين الجحيم والمخاطر. وهل يمكن للحب الموعود ، أن يولد في عين العواصف، ودونه الف مانع ومانع ؟

قالت مبتسمة :

- الم تنم قليلا ؟ اظن انك ما زلت منذ وصولنا تلازم شرفتك . وتتأمل النهر .

الأمر كذلك لقد استسلمت لتداعيات مربكة وأحياناً محبطة و أنا ما أزال أفكر بالقادم المجهول

أنت يا ياسر تتمتع بطاقة هائلة، لكنك تبددها بالأحلام والأوهام ، فلا تشغل بالك بالقادم من الأيام ... هل عاد أبو أرز ؟

ذهب إلى المقاهي للبحث عن رجل مناسب يعرف الأماكن ، و يكون دليلنا حتى نصل إلى المنطقة الخضراء .

كأنت المقاهي متناثرة على ضفتي النهر . و أغلب الرواد من العراقيين الذين لجؤوا سوريا طلبا للأمان ، وهربا من جحيم المعارك . أو من مفاجآت السيارات المفخخة . كأنت رائحة التنباك والمعسل ، تصل إلى شرفة الفندق و ما حوله ، و كأنت أصوات احجار النرد ، وهي تضرب طاولات مستطيلة صغيرة مرصعة بالموزاييك والصدف ، مزعجة لمن يطلب الهدوء والتأمل . و كان الوقت عصرا..... المتواجدون بأغلبيهم يلبسون لباس البداوة ، لم يتغير اللباس منذ الجاهلية ، أما البنى الداخلية الفكرية والعقلية، فقد نالها شيء من كامل أناقتها و بهائها تتهادى إليه بدلال ، ولكن ماذا يفيد الجمال والدلال في عين الجحيم والمخاطر. وهل يمكن للحب الموعود ، أن يولد في عين العواصف، ودونه ألف مانع ومانع ؟

قالت مبتسمة :

الم تنم قليلا ؟ اظن انك ما زلت منذ وصولنا تلازم شرفتك ، وتتأمل النهر .

الأمر كذلك لقد استسلمت لتداعيات مربكة وأحياناً محبطة و أنا ما أزال أفكر بالقادم المجهول

أنت يا ياسر تتمتع بطاقة هائلة ، لكنك تبددها بالأحلام والأوهام ، فلا تشغل بالك بالقادم من الأيام .... هل عاد أبو أرز ؟

ذهب إلى المقاهي للبحث عن رجل مناسب يعرف الأماكن ، و يكون دليلنا حتى نصل إلى المنطقة الخضراء .

كأنت المقاهي متناثرة على ضفتي النهر . و أغلب الرواد من العراقيين الذين لجؤوا كسوريا طلبا للأمان ، وهربا من جحيم المعارك . أو من مفاجئات السيارات المفخخة . كأنت رائحة التنباك والمعسل ، تصل إلى شرفة الفندق وما حوله ، و كأنت أصوات احجار النرد ، وهي تضرب طاولات مستطيلة صغيرة مرصعة بالموزاييك والصدف ، مزعجة لمن يطلب الهدوء والتأمل . و كان الوقت عصرا ..... المتواجدون بأغلبيهم يلبسون لباس البداوة ، لم يتغير اللباس منذ الجاهلية ، أما البنى الداخلية الفكرية والعقلية، فقد نالها شيء من التغيير. مازال زعماء العشائر في الوطن العربي، بهيبتهم وسطوتهم مثلما كانوا في جاهليتهم ، والأحزاب الانقلابية التي وعدت بالتغيير ، لم تمس إلا القشرة الخارجية الرقيقة فقط ، أما الروح الداخلية ، فلم ينلها سوى تغيير بسيط ، وقد سماها شاعر مشهور بالروح الجاهلية ، والطبع في أكثر الأحيان يغلب التطبع ، أما في العراق فقد ازدادت قوة العشائر ، بعد سقوط النظام في بغداد ، فأصبحوا الحكام الفعليين في مناطقهم . لقد غيرت تركيا بعد عام ١٩٢٤ وعلى يد كمال أتاتورك لباسها وعاداتها و افكارها و حتى احرف كتابتها ، ونادت بالعلمانية فطبقتها ، لكن شيئا من هذا لم يحدث في العراق ، رغم أن الحزب الحاكم قبل الاحتلال، كان يدعي العلمانية و الانقلابية . هل كان الحاكم يستفيد من تلك التناقضات في تثبيت أقدامه وترسيخها ؟ أم ان هناك سببا آخر لقوة الاستمرار ..

مهما كان الأمر : من المنصف أن نقول أن الطائفية في ظل ذلك الحكم ، الذي يقوده دكتاتور قاس قد اختفت أو تلاشت ، لكنها لم تنقرض أو تموت ، ربما كان تحت الرماد جمر ، فبمجرد أن جاء الاحتلال الأمريكي برزت ميليشيات طائفية تحارب بعضها . لقد كان ثلث الجيش العراقي السابق ، و الذي حارب إيران من مذهب الدولة التي حوربت نفسها ، لكن الوطنية والقومية كأنت هي التي تحرك الجميع دون أي نزوع طائفي أو مذهبي أو عرقي .

و كأنت الأقليات تمارس طقوسها بكل حرية ، بل تنعم بحرية تحسد عليها ، و كان نواب الرئيس من مختلف الطوائف والمذاهب ، و كلهم حتى لحظة

الاحتلال بدوا مخلصين وموالين. فمن أين اتت تلك المي من مولها و من حرك في داخلها طاقات عدوانية ، جعلت الجاري جاره ، و يذبح اطفاله امام عينيه و يسرق ماله و متاعه ؟ ! والذين اتوا للجهاد في العراق بدافع ديني ، أو غير ديني ، من حرضهم ؟ ومن ارسلهم ، أو سمح لهم بالعبور ، أو من مولهم على الأقل ؟

هذا ما حير جويل الناصوري ! و دعاها لأن تسأل ياسر الخوخة :

هل السيارات المفخخة ، عمل من أعمال الجهاد ؟

معظم تلك الأعمال الجهنمية ، والتي تقتل دون تمييز ، يقوم بها عملاء من الخارج ليسوا عراقيين . إنهم مرتزقة ، يستغلون تزمت بعضهم . لقد دمروا الاقتصاد ، وحرقوا النخيل ، وقتلوا الأطفال والنساء . قال لي مرة الشيخ حامد الأغبر، حديثا منسوبا إلى النبي محمد (ص) : (ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية أو يقاتل للعصبية، فقتلته جاهلية) ومعظم المقاتلين ، ينتمون لعصابات تعمل تحت رايات عمية ، أو اممية غربية ، ويقبضون بالدولار ثمن الدم الذي سفحوه، والطفل الذي أحرقوه . والنسوة اللائي أنتهك عرضهن امام ابائهن وأزواجهن، فأي جهاد هذا ؟!

ماذا يقصد بالميتة الجاهلية ؟

يعني أن يموت الإنسان دون هدف او ايدلوجية يؤمن بها ويدافع عنها . إنهم يقبضون ثمن جرائمهم ، ويعملون لصالح الأجانب.

في هذه اللحظة، جاء ابو أرز من أقصى المقاهي يسعى صاعدا لادنا

، فدخل عليهما محييا وجلس إلى طاولتهما وقال :

اظن أنت انجزت جزءا كبيرا من المهمة، واعتقد إنني عشرت على الرجل المناسب .

كيف وأين عثرت عليه ؟

جلست في مقهى الرشيد، وطلبت شاياً وماء ، كان إلى طاولة تبعد عني بضعة أمتار ، ثلاثة رجال يجلسون إلى طاولتهم ويشربون القهوة ، كأنت لهم سحن صارمة ، مقطبو الأجبنة ، كان احدهم يسر بخبر هام إلى الآخرين . رشفت من كأس الشاي الذي قدمه لي النادل ، و اعدت التحديق بتلك الناحية . غادر اثنان وبقي واحد ، كأنت عيناه حادتان عدوانيتان أمسكني أحدق به فتحفز ، ورماني بنظرة نارية .

عندها نهضت متناقلا وذهبت إلى طاولته ، نظرت إليه بعمق لأفهم

كنه رجل صارم . كأنت نظرة التحدي ما تزال بقوتها في عينيه . قامته مشدودة و جسمه رشيق ناهد . كأنه نمر يتحفز للانقضاض ، قلت :

- صديق ومحب جاء يطلب نجدة ومساعدة .

تغيرت ملامحه القاسية ، وفاضت براءة متأصلة و طيبة طبع ،

فغشيت وجه الرجل هيئة رحمانية وقال:

نحن في خدمة الطيبين من أنت ؟ وماذا تريد ؟ قلت :

أأنا ابو أرز من لبنان، ومعي رفاقي أربعة ، نحن بعثة تلفزيونية ، نحتاج لدليل يوصلنا إلى المنطقة الخضراء في بغداد لنبت من هناك الأخبار الطازجة ونقف على الحقيقة . قال :

الحقيقة واضحة وضوح الشمس ، لمن تتبعون و من يمولكم ؟

نحن نتبع فضائية الأفق الرحب) التي تعود لأنطون شركس .

واظن انك تعلم من هو، إنه رجل وطني يسعى إلى الحقيقة أينما وجدت ، أما التمويل ، فمن مردود الدعايات، التي تبثها فضائيتنا .

تهلل وجهه ومد يده مصافحاً ، ثم قال :

أشهد بأن فضائيتكم وطنية ، و لا غبار على صاحبها ، وقد كان له موقف شريف ، عندما احتل الأمريكيون بلدنا العراق . أنا عجاج الجلبجي أبو الحارث ، عقيد سابق في الجيش العراقي ، الذي حله الغزاة . لأجل هذا سأقدم المساعدة ، وأكون الدليل ، و أوصلكم للمنطقة الخضراء سالمين بإذن الله ..

ارتحت لكلامه والأمارات الصدق البادية على ملامحه : رغم أنت أعرفه منذ دقائق قليلة ، و لكنني أنا أبو أرز الذي خبر الرجال ، وذاق غدر الزمن وعرف كيف تؤول الأمور إلى خواتمها ، لكنني دفعت أبهظ الأثمان ، فوجدت نفسي اشرح له المهمة ، و أكثر من ذلك ، أشرح له الهدف المستتر للرحلة ، وهو البحث عن شابين اتيا العراق للجهاد بدافع وطني .

تأمل عجاج الجليجي مطولاً ، ثم قال :

سيتحقق الهدف بإذن الله ، لكنني أصارحك القول : إن إمكانية العثور عليهما شبه مستحيلة ، ولكنني سأحاول جهد استطاعتي .

قلت :

كم من المال تكلفنا العملية ؟

أنتتر عجاج بانزعاج وقال :

أنا أبو الحارث لست مرتزقاً ، ولا أتقاضى مالا لقاء نجدة الشرفاء .

قلت :

على كل لن يضيع تعبكم هباء ، وهذا الإشكال سيحل فيما بعد.

وارجو ان نلتقي غدا في فندق النورس الذي ننزل فيه . وهو قريب من هناء في العاشرة من صباح الغد .

سأكون عندكم في الفندق غداً في العاشرة .

قالت جويل :

هل تأكدت يا أبا أرز، أن عجاجا هذا ليس عميل امن معاد ، او

قاطع طريق ؟

آخر. تأكدت بالفراسة أن الرجل شهم. وعلى كل ليس لنا خيار

في الساعة العاشرة تماما ، وصل أبو الحارث إلى الفندق . كان بأنتظاره ياسر و جويل و ابو أرز الذي أعد مكان الاجتماع في غرفة منعزلة من صالونات الفندق. جلسوا جميعا إلى طاولة مستديرة ، و تم التعارف والترحيب. وعندما أحضر النادل القهوة ، أمره أبو أرز بأن ينصرف ، و لا يدخل احدا إلى غرفتهم . بعد هنيهة ضبطه خلف الباب . وبخه فاعتذر بأنه نسي غرضا وكان يود جلبه .

قالت جويل :

أنا رئيسة البعثة التلفزيونية التابعة للفضائية اللبنانية وصاحبها أنطون شركس . و هذا نائبي السيد ياسر الخوخة و معنا أبو أرز الذي اجتمع بك البارحة في المقهى و شرح لك موجز المهمة . و نريد الآن أن نضع النقاط على الحروف و نبحث في التفاصيل .

قال أبو الحارث :

فهمت من أبي أرز الهدف تماما . و ما يرمي إليه السيد ياسر الخوخة أيضا ، وقد أعددت في ذهني ليلة امس خطة التحرك للوصول إلى المنطقة الخضراء، لأني أعرف الطرقات جيدا ، وأنا - كما قلت لأبي أرز - ضابط سابق في الجيش العراقي المنحل ، و الذي تعرض لخيانة فانهزم ، ولائتلاف دول و معها أسلحتها الحديثة فاندحر . يلزمنا سيارة ثالثة ذات دفع رباعي، تكون بمقدمة سيارتيكم الاثنتين و يلزمنا هواتف خليوية، تعمل بالأقمار الصناعية ، و عنصر مسلح سيركب معي في سيارة المقدمة ، وكل هذه الأشياء استطيع تأمينها خلال ثلاثة أيام .

قالت جويل :

ابدا من الآن بالتحضير ، واشتر تجهيزات و سندفع المبالغ المستحقة ، وسيكون أبو أرز مرافقك ومعه النقود .

قال ياسر :

- إذا سنبقى في هذا الفندق ثلاثة أيام ثم نتحرك : انه وقت طويل وممل .

نعم هو وقت طويل، لكن التحضيرات تحتاج وقتا ، ولا تتوفر بسهولة .

قالت جويل :

هل استطيع زيارة عائلتك للتعارف ، وتمتين الأواصر ؟

بكل سرور ومتى أردت لقد نزلنا عند عائلة سورية في حي الرجاجيل . فاستقبلونا كأهل وقاموا بالواجب احسن قيام .

- سأذهب معك ، فيوصلنا أبو أرز . وأشرب مع عائلتك القهوة ثم اعود .

كأنت جويل ترمي من فكرتها ، التي القتها على حين غرة .

وبشكل فاجأ الجميع ، أن ترى حالة اسرته وأطفاله ، و تتعرف على امرأته . والأهم من ذلك ان تعطلي زوجته مبلغا محرزاً من المال ، بعد أن رفض أبو الحارث أن يأخذ اية مبالغ عندما عرض عليه ابو أرز

ذلك ، و تشعب النقاش بعد ذلك إلى العديد من القضايا ، ومنها ملابسات الحرب ، والسيارات المفخخة ، والمقاومات التي تأكل بعضها بعضا . و من جملة ما قاله أبو الحارث :

إن ثمة خيأنات حدثت حتى انهزم الجيش ، الذي كان يعتبر سادس جيش في العالم، والأول في المنطقة، و أنه سيدلي بتفاصيل خلال الرحلة .)

ولما سأله ياسر ، عن مدى نجاح المساعي في العثور على ولديه قال :

الأمل ضعيف ، و لكننا سنحاول .

حزن ياسر أشد الحزن ، وتغيرت ملامحه لكنه تماسك . ونهض أبو الحارث مستأذنا و داعيا جويل و أبا أرز، للذهاب معه إلى بيته في الحي الشرقي من دير الزور، حيث نزل عند عائلة سورية ، استضافته دون معرفة مسبقة أو قرابة ، فخصصت له ولأسرته غرفتين . وقد سبق للسوريين في كل مدنهم أن استضافوا لبنانيين وعراقيين ، و حتى اردنيين بسبب حروب أو كوارث حدثت لهم . و لم يخصصوا لهم خيما او معسكرات ، بل نزلوا ضيوفا أعزاء عند ذويهم، فالسوري يعتبر أن اي عربي في أي قطر أخا له ، ويقدم له ما يستطيع من المساعدة و الحماية ، و قد بلغ عدد العراقيين الذين اجؤوا إلى سوريا بسبب الحرب و الاحتلال : أكثر من مليون ونصف المليون عراقي . وامن لهم السوريون الطعام والكساء ، وسكنوا في بيوت اعتبرتهم إخوة وأهل ، حتى أن بعضهم فتح مطاعم ودكاكين ولاقى التسهيلات .

وصل ابو أرز ، و معه جويل و أبو الحارث إلى حارة الرجاجيل في شرق المدينة، وأشار أبو الحارث لأبي أرز، أن يتوقف عند أحد المنازل،

استأذنهم للحظات ثم دخل إلى البيت ، وعاد ليقول :

تفضلا .... على الرحب والسعة ، أم الحارث والأولاد بأنتظاركما .

رفض أبو أرز الدخول تاركاً جويل وحدها ، و قبل أن تدخل جويل إلى البيت ، أعطت أبا أرز حقيبة فيها منتا ألف دولار قائلة :

اشتريا السيارة والمعدات اللازمة ، واذهب أنت و أبو الحارث ، اما أنا فسأشرب القهوة عند أم الحارث ، وأعود سيراً عبر الأسواق الشعبية إلى الفندق، فالمكان قريب وقد حفظت الطريق ومعالمه .

دخل معها إلى البيت ، وعرفها على زوجته وأولاده الثلاثة ، ثم ودعها وانصرف مع أبي أرز ، لتنفيذ ما كلف به .

كأنت أم الحارث في الأربعينيات من عمرها جميلة عذبة طيبة . و

كان أولادها الثلاث يجتمعون حولها ، وينظرون بتعجب واستحسان إلى جويل . و قامت ابنتها) عندها صبيان و بنت) بعمل القهوة في المطبخ ، بينما صارت أم الحارث تحدثها عن النكبات التي عاشتها ، وعن بيتها الذي هدم بالقصف الغاشم . وفقدت ابنا يافعاً - براء ذلك .

وهاجرت بالثلاثة الباقين إلى سوريا بعد أن انعدم الأمن والأمان ولم يعد المرء يا من ، حتى من بعض جيرانه ، ويشك حتى في اقرب الناس ، لكن أبا الحارث يذهب بين وقت وآخر إلى العراق ، ثم يعود ولا تعرف

هي عمله هناك . كأنت أم الحارث متعففة . لم تذكر أو تتذمر من عسر أو فقر، بل كأنت متفائلة بالخلاص والأنتصار . وشربتا القهوة و شعرت جويل بحميمية ، وعطف منقطع النظير نحوها ، ربما تذكرت حادثة اغتيال زوجها ، و المصيبة المشتركة مع الاختلاف بينهما اعطت جويل مبلغا محرزاً في ظرف سميك إلى أم الحارث التي رفضت في البدء أخذه لكن جويل قالت :

هذه هدية متواضعة، والهدية لا ترد . إنها للأطفال ، وعربون تعارف جميل بيننا . فاضطرت ام الحارث لأخذ الظرف شاكرة .

عندها استأذنت جويل بالانصراف فذهبت مودعة بحفاوة

ولما مشت في أسواق دير الزور ، سرت بالأسواق الشعبية ، والناس البسطاء والعراقيين الذين يتجولون بحرية و كأنهم في بلدهم .. يبيعون ويشترون يسرحون ويمرحون . قالت في نفسها (مازالت الدنيا بخير)

(٢)

نظر في المرأة ، فرأى شعر رأسه و ذقنه قد استطالا و تكاثفا بدرجة كبيرة . مع انه تذكر أنه زار صالون الحلاقة منذ أيام . كيف نما الشعر وتكاثف بمدة وجيزة ؟ قرر أن يذهب لصالون الحلاقة مجدداً، فرأى الحلاق منهمكا بقص شعر رجل كهل ، يغزو شعره شيب سلم وجلس على الأريكة منتظراً دوره . بعد وقت قصير ، سمعوا صوت المؤذن من المسجد القريب يقول : يا أخوان ، اخوكم ياسر الخوخة أنتقل إلى رحمة الله ، مع المسامحة ، الفاتحة .)

تحسس بعض اجزاء جسده ، فرك عينيه . إنه ما يزال حيا . أراد أن يقول شيئا ، لكنه ارتبك و لم يجد بدأ من أن يسأل الحلاق :

هل المتوفى هو ياسر الخوخة نفسه ؟

نعم لقد توفي اليوم ياسر الخوخة ، أما سمعت المنادي ؟

بعد فترة صمت قال ياسر :

لكنني أنا ياسر الخوخة ، ما ازال أمامكم حيا ضحكا من كلامه ، وأردف الحلاق قائلا :

نعلم ذلك ، ومع هذا فأنت رجل ميت .

غادر الصالون بعد أن تمتم بشتيمة لم يسمعاها ، واتجه إلى حيث يقيم ، ولما وصل وجد على الرصيف قرب الباب نعشا ، وقد تجمهر بعض الناس فسأل نفسه من الميت يا ترى ؟ ثم سأل أحد الحاضرين :

من الميت ؟

ياسر الخوخة .. البقية في حياتك .

لكنني أنا ياسر الخوخة ، بشحمه ولحمه ما ازال حيا كما ترون لم يأبه أحد لقوله ، وظن أنه قد أصبح فاقد الأوتار ، وأنه لم يعد يملك صوتا يوصله بالآخرين . كل ما في الأمر ، أن حشرجة تصدر عنه غير مفهومة، بينما استمر المتجمهرون ، يرددون بعض العبارات الدينية .

دخل إلى غرفته ، كأنت سارين تقف مع جويل و ابو أرز صامتين

واحمين . لم ينبسوا بكلمة إلى أن قالت سارين :

عليك تجهيز نفسك للدفن .

أنا حي ، ولا أريد أن أدفن .

قال أبو أرز :

لا تكابر ... لقد أذن مؤذن بموتك .

القي بنفسه على السرير ، فشعر أن جداراً قد خر منهدما ، إنه هو الجدار. تحول إلى جدار مهدم . لم يصدق ما يجري . إنها مؤامرة عالية ، اشترك فيها الجميع . قرروا إنهاء دوره . ليكن ، لكن أن يدفن حيا فهذه مأساة ، بعد هنيهة جاء رجال بلا ملامح وضعوه على

خشبة المغتسل ، وصبوا عليه ماء حاراً فالتصق بالخشبة كأن غراء شده للخشب ، او سمره بالمسامير. ودخل من الباب يونس الخوخة ، بابتسامة ماكرة لم يستطع إخفاءها ، شد على يد سارين و قال :

- كان عنيداً رحمه الله ! يتشبث برايه وهو موقن بخدمته .

لنقرأ الفاتحة على روحه .

ثم جاءت ناريمان و ابنتها جمانة ، كأنهما تخرجان من الملهى لتوهما ، بعد وصلة غناء ماجنة ، فرائحة الويسكي تفوح منهما .

قالت أمها :

ودعيه بأغنية لائقة .

فبدأت جمانة تردد أغنية لطربة معروفة ، وصارت تخلدها .

بلاش تفارق - خليك هنا خليك - بلاش تفارق

صاح بصوت مقطوع الأوتار . فخرجت حشرجة من امه لم يأبه لها أحد

لماذا تريدون دفني ! أنا حي . ما زلت في أول الكهولة .

وضعوه في التابوت وحملوه ، وسار معه جمع غفير ، واثناء المسير ، فتحت جمانة غطاء التابوت قائلة :

سلم على مزيد الخشن ، وقل له : إني على العهد باقية .

سأرسل له الدراجة الهوائية إلى العالم الآخر ، انصحه الا يكذب مدعيا أنه يملك ثروات ، وقهقهت .

وصلوا المسجد ، فبرز الشيخ حامد الأغبر ، ودنا من التابوت وهمس :

لو عبرت إلى الضفة الأخرى لما مت .

أجابه من التابوت :

لا يا شيخ حامد ، أنا كما أنا ، لا أحب تغيير الضفاف ، كما أني لا أحب أن أموت أو ادفن حيا .

بعد الصلاة ، حملوه إلى المقبرة. وصلوا المقبرة و كان القبر معداً .

التراب الطازج الرطب وقربه شرحات الحجر البازلتي الأزرق ، وتقدم

يونس الخوخة من الجمع ، وقال :

أسرعوا بالدفن ، سأغادر إلى جزر الهاواي . عشيقتي روزيت على الرمل ، تأخذ حمامها الشمسي أريد أن أصل إليها قبل مغيب الشمس .

رفع يونس غطاء التابوت . وهمس بأذن ياسر الخوخة :

سأغادر إلى النعيم، في الوقت الذي تغادر أنت فيه إلى الجحيم.

أراد أن يرد بشتيمة قذرة لكنهم أسرعوا فأنزلوه من التابوت مكفنا ، و القوه في الحفرة ممدداً .. لاحظ بأن الكثير من الجمع شامتون . و يخفون ابتساماتهم الهازئة المتشفية .. لم يعرف الأسباب .. فهو لم يؤذ احدا أو يضر بمصالح احد طيلة حياته التي عاش .. هل لأنهم نجوا ووقع هو .. وصاح مناد اسقفوا القبر بشرائح البازلت

الأزرق . ففعلوا ثم انهالوا عليه بالتراب وذهبوا .

حاول التملص من الكفن ، بصعوبة نجح .. و راح يبحث في الحفرة الضيقة عن نافذة للنجاة وجد فتحة ضيقة لكنها تؤدي للأسفل .

قال في نفسه : لأعبر . مهما كان اتجاه الفتحة - عبر الطاقة الضيقة ، فوجد نفسه تهوي في فراغ رمادي إلى هوة لا قرار لها، عندها لاحقته غربان سود تحاول نهش لحمه و اقتلاع عينيه ، ما يزال يهوي وهي جادة في اقتطاع لحمه والتهامه ، وصار يصرخ وينن بصوت عال ، و سمع من يناديه من خلف باب غرفته في الفندق :

ياسر ما بك ؟ هل أنت بخير ؟

على باب غرفته في الفندق ، كان يقف أبو أرز و جويل و العامل المناوب المحب للاستطلاع . الوقت قبيل الفجر، والصمت يلف الفندق إلا من حشرجات و صراخ ياسر ، لم تكن جويل قد نامت بعد . فمن عادتها أن تقرأ الشعر قبل النوم ، أو تتأمل في مجريات نهارها الذي انصرم . لقد تنبهت إلى صراخه و استنجاده فخرجت تستطلع الأمر . وإذ بأبي أرز و العامل المناوب يقفان حائرين ، فقد كان باب غرفته

مرتجا ، ورغم الطرق والنداء لم يستجب ، فصاح ابو أرز ثانية :

ياسر هل أنت بخير ، و ما مصدر انينك ، هل أنت مريض ؟

كان ياسر قد تخلص من كابوسه ، بصحوه على طرقهم وصراخهم، والعرق يجلله ويبلله ، أما أطرافه فهي ترتجف ، والخوف يسيطر على ملامحه ، نهض متثاقلا ، وفتح الباب ثم عاد للفراش منهكا ، اندفعوا للداخل بلهفة لمعرفة ما جرى و ما الأسباب؟

قالت جويل :

ما بك يا ياسر ، هل أنت مريض ؟

لا لست مريضاً ، إنه كابوس و حلم فظيع .

- لا بأس عليك .

أو عزت جويل لخادم الفندق المناوب ، بجلب زجاجة ماء معدني ، فحضرت في الحال ، وبعد قليل أحضر النادل إبريقا من زهر الليمون مع النعناع وجلست هي مع ابي أرز، يستطلعان تفاصيل الحلم :

شرحه لهما باقتضاب ، وهو يلهث وتساءل :

هل هي إشارات من القدر المصائب قادمة ، أم ماس سوف تقع دون أن نحسب لها حسابا ؟)

قالت جويل :

أضغاث احلام .... يبدو انك تناولت عشاء دسما ونمت فوراً .

شربوا جميعا كؤوسهم، واستأذن أبو أرز، فغادر لأن عليه في النهار أعمالاً ستنجز ، فبقيت جويل إلى جانبه، وصرفت عامل الفندق المناوب ، وما زالت تلاطفه ، وتهدئ من روعه ، حتى عاد إليه اتزانه .

قال لها :

لقد خسرت كل شيء يا جويل ، وحياتي قاحلة كصحراء . ويبدو أن رحلة البحث عن ولدي ، ستبوء بالفشل ، وهذا الحلم إشارات الصواعق تنذر بالفواجع .

لا تكن متشائما سنبذل وسعنا ، وقصارى جهدنا و إن شاء الله سنحقق كل آمالنا . مازال عندك الكثير لتعطيه ، إنك لم تفقد سوى اليسير ، وهذا شأن الحياة ، وكل ذلك لتزداد صلابة وقوة وتجربة إن ما تفقده من جهة ، يأتيك أفضل منه وأغزر من جهة أخرى .

اتظنين الأمر كذلك يا جويل ؟ لقد افتقدت الحب، وتبددت الأحلام ، فهل أجد عندك الدواء ؟

ضحكت بغنج و مرح و قالت :

أنت بحاجة إلى طبيب أكثر ما أنت بحاجة إليه ، و المشكلة أني لا استجيب لعلاج ، فأين النطاسي البارع ، الذي يعرف مكسر الداء في ؟

هل كنت نائمة فأيقظتك ؟

لا كنت أقرأ ديوان طاغور شاعر الهند ، وقد شعرت بعد القراءة بدفقات روحية ، تصب في جسدي فتشحن روحي ، وتبعد عني النوم .

هلا قرأت لي شيئا من ذلك الديوان ؟

حبا وكرامة ، فقد غادرني النعاس هذه الليلة و لا أدري السبب

الشحنة روحية عاصفة . ام قلق من المجهول ؟

ذهبت إلى غرفتها المجاورة وعادت تحمل ديوان الشعر . جلست أمامه ، وصارت تقرأ له قصيدة مشهورة الطاغور .

اليوم لم يختم بعد . والسوق التي على شاطئ النهر لا نزال .

لقد خفت أن يكون يومي قد تبدد . و آخر دراهمي قد ضاع .

ولكن لا ا لا يا أخي : إني ما زلت أملك شيئا لأن حظي لم يسلبني كل شيء .

الآن أنتهى البيع والشراء ..

لقد جمعت حصيلتي من الطرفين

و الآن حان وقت عودتي إلى البيت .

و لكن ، أيها الحارس ، افتطلب ضريبتك ؟

لا تخف يا أخي ، لأني ما زلت أملك شيئا . لأن حظي لم يسلبني كل

شيء .

إن سكون الريح ينذر بالعاصفة .

وإن السحب المتجهمة في الغرب، لا تبشر بخير، و الماء ساكن ينتظر

الريح .

أما أنا ، فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركني الليل .

ولكن يا صاحب المعبر افتريد أن تطلب أجرك ؟

أجل يا أخي ، إني ما زلت أملك شيئا ، لأن حظي لم يسلبني كل

شيء .

و في ظلال الشجرة على جانب الطريق ، تربع الشحاذ .

وا أسفاه ، إنه يحدق في وجهي ، و في عينيه رجاء وحياء .

أنت في ظنه ، غني بما ربحت في يومي .

أجل يا أخي ، إني ما زلت أملك شيئا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء .

لقد اشتد ظلام الليل ، وأقفر الطريق ، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر .

من عساك تكون يا من ، تتبعني في خطوات متلصلصة

آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تسرق مني كل ارباحي لن اخيب ظنك .

لأني ما زلت أملك شيئا ، لأن حظي لم يسلبني كل شيء .

وصلت المنزل عند منتصف الليل ، بيدين فارغتين .

و أنت لدى الباب ، تنتظرين في يقظة و صمت ، و في عينيك الرغبة .

و كعصفورة وجلة طرت إلى صدري ، يدفعك حب تواق .

آه يا إلهي ، إن شيئا كثيراً ما يزال باقيا معي ، لأن حظي لم يخدعني ، ويسلبني كل شيء .)

كان ياسر الخوخة منتشيا و مأسوراً ، من إنشادها ، ومن حنان صوتها تغير المكان والزمان بلحظة ، نسي كابوسه وتشاؤمه ، و داهمته العاطفة فغشيت كيانه ، ونظر إلى جويل ، و كأنه يستجدي حبا

فقال:

جويل ، أو تظنين أن الحب يتجدد كما الربيع ؟ وأن شتاءاتنا الماضية ، كأنت إرهاصات لحب قوي سوف يولد من جديد ؟

قالت تجامله ، وقد علقت ابتسامة شابها حزن غير قابل المداراة :

أنت يا ياسر ، الحب القادم . أو الجرح الآتي ، ربما يولد بين العواصف وأمواج النار ، هو الآن في كمون ، لكن الخزان سيمتلئ يوما .

وينبجس النبع الهادر ، وقد يتحول إلى نهر .

ارتاح لكلامها ... فقد شحنت روحه وكأنت خاوية . غشيه أمان بعد خوف من كابوس مرعب، واعترته أمواج من فرح عظيم ، ثم استدرك :

نحن ذاهبون إلى الجحيم. فهل ينمو حب وسط اللهيب ؟

الحب ينمو في كل زمان ومكان . عندما يولد الحب كالبرق ، تتغير الفصول، ويزدهر الزمان، والآن سأدعك تنام قليلا ، ففي الغد علينا تنفيذ أمور هامة ، وبعدها سنستعد للتحرك .

انجز أبو الحارث وبالتعاون مع أبي أرز المهام المطلوبة ، فاشتروا سيارة رانج روفر ذات دفع رباعي ، وبعض المناظير والهواتف الخليوية . واشتروا أيضا مؤونة تكفي أياما . وكأن أبا الحارث وجد معاونا وسائقا ، يعرفه أو تعامل معه أو كان بينهما

أسراراً ، والأهم أنه خبير بالقبائل والعشائر ويعرف التعاطي معها ، وهو ينتسب إلى بعضها ويدعى هواش المربد)، وهواش المريد هذا ذو شخصية ملتبسة ، خدم طويلا في الجيش، ثم درس وأصبح أكاديميا ، لكنه الآن يتخفى ليتفادى الاغتيال . اشترت جويل مستلزماتها الخاصة ، واعدت نفسها لسفر شاق طويل . اتصل ياسر الخوخة بأبيه ، وأعلمه أنه سيغادر الأراضي السورية إلى العراق خلال ساعات ، وتكلم مع

جورجيت التي أصبحت زوجة ابيه وشريكته في التجارة في بيروت ، ولم ينس أيضا أن يدير رقم بيت الشيخ حامد الأغبر . فردت عليه ابنته خزامي فأخبرها بأنه سيدخل العراق بعد ساعات واحب أن يكون آخر اتصال معهم . فرحت خزامى كثيرا وظهر الحب، واضحا في لهجتها وتلهفها ، وقالت له :

أنا بانتظارك ، ومتلهفة لعودتك سالما ، لقد أصبح لك مكان واسع في قلبي .

وأنا كذلك ، فأنت فتاة لا تنسى ابدا .

سيكون لنا لقاء ، بل ربما حياة مشتركة ، وهذا ما فكرت به منذ أول درس لقنته لي في بيتنا . كأنت أيام لا تنسى معك . كان أول حب في حياتي وها أنا أعترف .

ارتبك للمفاجأة ، ولم يعرف بم يرد . لكنه وجد نفسه القول :

هو شعور مشترك ، وعاطفة أحسست بها بعد كوارث .

ودعها وأغلق الهاتف وقال في نفسه : مرة روى لي الشيخ حامد

الأغبر حديثا نبويا : (عليكم بزواج الأبكار فإنهن أنتق ارحاما وأطيب أقواها، وأرضى باليسير) ثم ابتسم لغرابة مشاعره وتأرجح ها، هل هو

تشتت الحواس أم ضياعها ؟

فاجأه ظهور جويل تقول :

سمعت ما كنت تقول لخزامى ، واظن انك وجدت ما تبحث عنه ، فهنيئا لك !

قال :

أردت أن أودع الشيخ حامد ، فوجدت ابنته التي علمتها درسا مرة

.ولأن الشيخ غائب لشأنه ، تحادثنا قليلا .

لا داع للشرح فتعبيرات الوجه ، أبلغ من كل جدل او تسويغ .

الله يهنيك .

قال في نفسه :

(الغيرة تصاحب المرأة ، في كل مراحلها. وربما كان هذا أجمل شيء فيها ، وأزعج شيء فيها أيضا .)

حان وقت المغادرة . الأوراق جاهزة ، وسيتم العبور من البوابة النظامية . إنه الطريق إلى الجحيم .

(4)

خرجت القافلة من سوريا عبر المعبر النظامي ، و دخلت الأراضي العراقية المحتلة . كأنت سيارة أبي الحارث (الرانج) التي اشتروها من دير الزور ، تسير في المقدمة ، وإلى جانبه مساعده هواش المربد ، الذي التقاه في دير الزور ، وتعاقد معه كدليل وللعلاقات العامة أيضا . وإلى الخلف منهما بمئة متر ، كأنت السيارة التي يقودها ياسر الخوخة ، وإلى جانبه جويل الناصوري . أما السيارة الأخيرة التي يقودها أبو أرز ومعه الفنيان الاثنان ، فكأنت تبعد ايضا مسافة مئة متر عن السيارة الوسطى . و كأنت الغاية من هذا التباعد الذي نظمه أبو الحارث و معاونه هواش ، هو تفادي الألغام والطيران ، ولحصر الأضرار بأقل ما يمكن . و كأنت وسيلة الاتصال ، بين السيارات الثلاثة مؤمنة بهواتف لاسلكية. وقال أبو الحارث لقادة السيارتين خلفه :

إذا أعطيتكما إشارة طيران ، فيجب زيادة السرعة إلى حوالي مئة و ثلاثين كيلومتراً في الساعة ، وعليكما عندها بمباعدة المسافات بين السيارات . وإذا قلت لكما : (أنتهى طيران ، تعودان للسرعة الاعتيادية.

ومازال الركب على طريق إسفلتية مهترئة ضيقة. حتى شاهدوا السيارات المحروقة و المحطمة على جانبي الطريق . فوجئوا بدمار هائل ، وبقايا هياكل عظمية محترقة لبشر . كان دماراً لا يمكن تخيله

لكل مظاهر الحياة ، وكأنت أشجار النخيل أيضا قد أحرق معظمها في مزارع ، كأنت تنتج خيرات. وقد طحن النوى بدل القمح ، وصنع منه خبز اثناء الحصار الذي دام أكثر من عشر سنوات فلم يجوعوا و تشكلت حفر كبيرة ، وعظيمة على مدى النظر، هي نتيجة سقوط صواريخ ، أو قنابل ضخمة على قوات عراقيا ، كأنت متواجدة إبان الهجوم على تلك الأراضي ، ولاحت بلدة إلى يمين الطريق بمسافة قريبة. عرفوا أنها بلدة (أم البرايا من اللافتة المثبتة إلى يمين الطريق بأمتار .

وجاء صوت أبو الحارث من هاتفه المحمول، يوعز بأنه سيتوقف في تلك البلدة . عندما وصلوا إلى مشارفها : تجمعت القافلة في منخفض قريب

و قال لهم أبو الحارث :

سأذهب ومعاوني هواش إلى هذه البلدة لاستطلاع الأخبار .

ومعرفة تواجد قوات الاحتلال والميليشيات .

قالت جويل بعدما تشاورت مع ياسر :

سأذهب أنا وياسر معكما ، و يبقى أبو أرز مع السيارات ...

إذا أسرعا ، والحقا بنا .

ووصلوا البلدة التي تهدم الكثير من بيوتها . كأنت بمعظمها بيوتا طينية ، القسم القليل منها إسمنتيا من طابق واحد . وبعضه من

طابقين ، وفيها آثار دمار هائل . وشاهدوا سوقاً واسعة لخرداوات متناثرة ، ومرتجلة الترتيب ، كائنة في وسط البلدة .

سأل ياسر أحد السكان المتواجدين، عن حقيقة هذه السوق الضخمة ، في تلك البلدة المتواضعة .

قال الرجل :

إنه (سوق النهب والمسروقات) حيث يجلب اللصوص المسلحون الذين يدعون أنهم مقاومون أو مجاهدون - إلى هذه السوق بضائع مسروقة ومنهوبة من مدن عراقية داخلية، ويهربونها أحياناً إلى الداخل السوري وأحياناً يبيعونها هنا .

قالت جويل :

قلت ميلشيات للسرقة ؟ الأولى أن تقول عصابات !

هي كذلك بالفعل ، هناك ميليشيات تدعي أنها مقاومة ، وغالبا ما تكون ذات صلة بالأجنبي ، أو ذات بنية طائفية ، في ظاهرها تقاتل قوات الاحتلال ، وفي حقيقتها تنهب البيوت التي تركها أصحابها، أو تدخل بيوتا فخمة ، مازال أصحابها فيها ، وهم أغنياء موسرون، فيذبحون الأبناء ثم النساء ثم الأب صاحب البيت بالسكاكين ، ليعذبوهم قبل الموت ، فلا يرف لهم جفن ، وأحياناً تغتصب الحرائر والفتيان ، أمام الآباء أو الأزواج ثم يقتلان . تنهب محتويات تلك البيوت ، وتحمل محتوياتها في شاحنات ، وقد تحرق في أكثر الأحيان، بعد إفراغها من محتوياتها ، وتترك على الهيئل . تحمل

تلك المسروقات بسيارات كبيرة تحت سمع الاحتلال وبصره . يدعي انه يقمعها وفي السر يشجعها ، وتوزعها العصابات تلك ، على أسواق فتباع بأبخس الأثمان . لقد سرقوا الأبواب والنوافذ وأدوات المطبخ وصنابير الماء وأزرار الأنارة. وحتى أسلاك الكهرباء سحبوها من الجدران . الرخام الثمين أيضا قلعوه وحملوه وباعوه، تفرج في السوق ستجد كل ذلك ..

وشاهدوا في السوق صنابير الماء و خلاطات الفواكه ، وأدوات تحضير الطعام ، طناجر وأكواب صحون وملاعق وسكاكين مطبخ ، و ادوات كهربائية متنوعة : من برادات وغسالات ومراوح وتلفزيونات ، وأسلاك كهرباء ، وأبواب مخلعة وشبابيك

مكسرة ، أباريق و كؤوس ، عدد صناعية و كلها مسروقة ، وفي زاوية من السوق ، كأنت الدراجات النارية القوية وحتى الحربية منها التابعة للجيش العراقي السابق .

متواجدة و كلها برسم البيع . وشاهدوا أيضا السجاد العجمي الفاخر .

وعليه آثار دماء أصحابه ، بالكاد قد جف . فتأثر ياسر و جويل من هذا المنظر . لكن معاون أبي الحارث هواش، أعجبته دراجة نارية حربية ، تسع شخصين مؤلفة من ثلاث عجلات ، وتصلح لعمليات الاستطلاع . فأشار على أبي الحارث أن يشتروها و يضموها لقافلة المسير فهي ستفيدهم مستقبلا في جمع المعلومات ، وتصوير أماكن يصعب الوصول إليها بالسيارات .

فقال أبو الحارث :

فكرة صائبة ، وستقود هذه الدراجة أنت يا هواش ، أمام الرتل

فيكون لدينا مزيداً من الحيطة و الأمان .

عارض ياسر وجويل الفكرة : لأن الدراجة حتما مسروقة ، ولا يجوز تشجيع السرقة بشراء المسروقات، لكن أبا الحارث ، أقنع الجميع بأن تلك الدراجة تعود إلى محاربين في الجيش العراقي ، فالأولى بهم أن يستفيدوا منها ، لأنها سرقت وأنتهى الأمر ، وإن هم لم يشتروها سيأتي ربما مهربون يستخدمونها للشر. فوافقوا على فكرة شرائها و اشتروها بثمن بخس ، و ملئت بالبنزين من صفائح كأنت أيضا تباع في سوق المسروقات ، ويبدو أنها منهوبة من خزأنات الجيش العراقي السابق ، ففي سوق المسروقات تجد كل شيء . و حاول أبو الحارث شراء بندقيتين حربيتين . فانفرد بأحد الأشخاص في السوق ، وعلم من البائع أنه يريد ألفي دولار ثمنهما ، فوافق أبو الحارث دون أن يرجع إلى جويل و ياسر . وقال له البائع أنه سيحضرهما بعد ربع ساعة ، و لما علم ياسر بالخبر قال :

نحن لم نأت العراق لنحارب ، بل أتينا لما تعرفه أنت .

البندقيتان ليستا للقتال أو الهجوم ، بل هما للدفاع عن النفس من اللصوص الذين قد نصادفهم على الطريق ، أو لرد الضواري الجائعة التي قد تهاجم الرتل .

لما سمعت جويل ذلك خافت ، لكنها كتمت خوفها وقالت :

- لا مانع ، اصرف من النقود التي أعطيتك إياها لشراء كل المستلزمات . وإذا احتجت لأكثر فسأعطيك كل ما تطلب .

وصلت البندقيتان مع صندوق ذخيرة كبير. ووضع المعاون هواش ذلك في المقعد الجانبي للدراجة، ضحك هواش رأى السلاح وقال لأبي الحارث :

ليتنا طلبنا من التاجر قاذفا مضادا للدروع .

ضحك أبو الحارث ، وقال :

والله لو وجدت في البلدة دبابة لاشتريتها ، السلاح زينة الرجال

سكتت جويل على مضض ، أما ياسر ، فقد نال :

اللهم اكفنا شر ما هو آت .

وذهبوا جميعا إلى مكان القافلة في المنخفض . وركب كل في سيارته.

أما هواش ، فقد امتطى الدراجة النارية ، ومعه بندقية وهو في غاية الفرح .

تابعت القافلة مسيرها ... في المقدمة الدراجة النارية يقودها المعاون هواش ، ومعه بندقية حربية في السيارة الثانية أبو الحارث ، ومعه أيضا بندقية وذخيرة .

في الوسط جويل و ياسر يحملان قلقا وخوفا ، وفي السيارة الأخيرة أبو أرز ، لقد أصبحت القافلة مسلحة ، وإن ببندقيتين فقط ، لكنهما مع رجلين خبيرين محنكين ، ولهما خبرة في الحروب ، إنهما يعادلان عشرة رجال .

لم ينس أبو الحارث أن يتصل ببعض رجال القبائل أثناء ترجله ، وقد حذروه من خطورة الموقف في هذه الأيام، ومن تشديد الرقابة

ووجود الكمائن . لأن الجيش الأمريكي يبحث عن ولدي رئيس النظام السابق. وقد وصلتهم الأخبار بأنهما في إحدى البلدات القريبة ، فأوصى أبو الحارث صديقه بأن يظل على اتصال معه، ويخبره عن أمان الطريق، حتى لا تحدث للقافلة مفاجات ، فوعده بذلك .

كأنت الشمس تميل للمغيب ، ولم يبق لآخر ضوء إلا دقائق. و

المنطقة الخضراء ما تزال بعيدة، فى تلك اللحظات سمعوا سوت دوى طائرات ، اعقبه انفجارات ، قال أبو الحارث :

- زيدوا السرعة وباعدوا المسافات .

فزيدت السرعة و المسافات ، جاء اتصال لأبي الحارث من صديقه دحام ، يوجهه نحو جهة أخرى لأن طريق مسيرهم لم يعد آمنا . ما أروع أن يكون لك صديق بعيد ! يرصد ويوجه ويدلي بالمشاهدات ! إنه العين التي ترصد أفضل من (أواكس) . لذلك رأى أبو الحارث أن تنحرف القافلة إلى طريق يساري ترابي غير معبد ، يؤدي لى مزرعة آمنة نسبيا ، تابعة لدير مهجور ، فلقد سافر كثير من مسيحي العراق ، هربا من الجحيم إلى السويد وإلى فرنسا وإلى دول أخرى . وتركت المعابد والكنائس مهجورة . يحيط بالدير مزرعة كبيرة ، وفيها نخيل وزيتون وكرمة عنب ، ويمر بقربها فرع من نهر ، لكن الدير والمزرعة لم يكونا مهجورين تماما . وقد كان المكان يستخدم لأغراض غير ما خصص له بالأساس . فقد استلم المزرعة والدير كاهن لم يشأ أن يغادر . بقي في الدير لحراسته ولأشياء أخرى . هو صديق لعضو قيادي سابق في الحزب الذي حل ولوحق افراده . والذي كان يحكم

البلاد من اقصاها إلى أقصاها . وهذا الراهب يدعى أنطون النهري : أما صديقه القيادي السابق ، الذي كان عضواً في لجنة الحزب العليا ، والذي كان هدفه غامضا ، فقد عرف كيف يكسب ثقة قيادات الصف الأول ، ويمسك بأمور خفية ، ويناور عند الأطراف المتقاطعة والمتنافرة ، وكأنه جاسوس مزدوج. لذلك فقد كلف بنقل أموال البنك المركزي العراقي - قبيل الاحتلال بقليل - إلى الأردن ولبنان . وقيل إنه اشترك مع بعض أبناء مسؤولين لبنانيين ، في تبيضها وإدخالها المصارف لبنانية ، لقاء مبالغ باهظة جداً ، ويدعى هذا المسؤول) جبور القناقي) ، وقد خدم فترة لا بأس بها بجهاز الأمن والمخابرات العراقي، وعرف الأسرار والكثير من الخفايا ، لذلك احتفظ بقسم كبير من تلك الأموال لنفسه ، ووزعها بين الأردن ولبنان أخذا بالقاعدة التي تقول : (لا تضع بيضك كله في سلة واحدة)

والمهم أن الركب سار في طريق ترابي ، بإيعاز من أبي الحارث وتوجيهه منحرفا نحو الشمال ، وأوغل في ذلك ، وادى به المسير إلى منخفض شاسع باتجاه دير مهجور ، و

بدأ الظلام يحل شيئا فشيئا ، والقلق يعتري جويل وياسر أكثر واكثر . وشعرا كأنهم يساقون جميعا إلى الموت وهم ينظرون .

بعد مسيرة نصف ساعة ، وصلت القافلة إلى منخفض واسع وعظيم ، أكبر من واد وأصغر من بلدة، يؤدي إلى هياكل وخرائب ، أو هكذا هيئ لياسر و جويل ، وسأل ياسر أبا الحارث بالهاتف الخليوي :

أين ذاهبون ؟

لقد وصلنا ، ستعرف بعد قليل .

وتوقفت الدراجة في ساحة كبيرة ، تبعتها السيارات . و قد أصبحت كلها مجتمعة في حيز واحد ضيق و محصور . وفي العالمة ، لاحشبح يأتي من العمق، وكان هذا الشبح هو الأب أنطون النهري نفسه.

وكان أبو الحارث قد أخبره بقدومه من هاتف (الثريا) ، فخرج يستقبله ، قال الشبح :

أهلا بأبي الحارث ، أنت الآن في أمان فتفضل أنت وضيوفك لتشرب الشاي .

يبدو أنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد ، لكن (من جمع الشامي على المغربي) كما يقول المثل . لابد أن مصالح مشتركة ، تشد أواصر صداقاتهما فما هي هذه المصالح يا ترى ؟

صفت السيارات بإيعاز من أبي الحارث ، في مرآب مسقوف مع الدراجة ، وترجلوا جميعا ، ولحقوا بأبي الحارث وصديقه الأب أنطون ، حتى وصلوا إلى بناء كأنه كنيسة ، ودخلوا قاعة كبيرة أمامها المذبح. فعرفوا أنهم في كنيسة حقيقية لكنها مهجورة ، ومن

مدخل قرب المذبح عبروه ، قادهم إلى صالون كبير مفروش ومضاء . ذهب الخوف قليلا واعتراهم شيء من اطمئنان ، وعرفهم أبو الحارث إلى صديقه

أنطون النهري ، كما جرى تقديم أعضاء البعثة إليه فردا فردا . وشرحت جويل مهمة البعثة التلفزيونية وأن هدفهم المنطقة الخضراء في بغداد . وكاد ياسر أن يشرح هدفه الخاص ، لكنه تريث .

وجاء خادم يحمل كؤوس الشاي الساخن فوزعها على الضيف الذين جلسوا على الأرائك الحمراء ، ذات الخشب الذهبي اللامع .

قال الأب أنطون محدثا ضيوفه :

الحمد لله على سلامتكم جميعا ، فلقد دخلتم العراق المحتل في ظرف دقيق ، وبأخطر الحالات . ذلك أن المحتلين يضيقون الخناق على صدام المتواري، وولديه قصي وعدي ، وعلى فلول المقاومة ممن تبقى من الجيش العراقي ، صدام كأنه فص ملح وذاب في الماء ، لا يعرفون أين اختفى ؟ أما ولداه فبين العشائر الموالية محتمون . لقد وضعت جائزة قيمة لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض عليهما ، مقدارها ثلاثون مليونا من الدولارات، أما صدام فقد وضعت مكافأة أيضا بمثل ذلك المبلغ ، ستؤدي حتما للقبض عليه . هناك بعض النفوس الضعيفة الخائنة ، في كل دولة ومجتمع ، ممن يتصيدون الجوائز . العراق الآن غابة ، ولا يوجد قانون سوى قانون الغاب : لذلك الخطر في كل مكان .

قالت جويل :

نحن نملك إذنا من السفارة الأمريكية في بيروت ، يخولنا دخول العراق ، وممارسة البث .

إن طائرات قوات التحالف ، تضرب كل شيء يتحرك ، وليس من سبيل لأن تقدموا لها الأوراق المختومة ، وهي في الجو .

وتابع الأب انطون :

لذلك سيطول بقاؤكم هنا أياما ، حتى تهدا الأمور وينجلي الموقف.

قال ياسر :

أمن الممكن أن تبث الأخبار من هذا المحطتنا في بيروت ؟

إن المراقبة الإلكترونية الدقيقة من القوات الأمريكية ستكتشفكم على الفور، وستأتي قوة تدمر المكان بمن فيه ، قبل أن تعرف من تكونون .

- إذا علينا التريث، حتى نصل للمنطقة الخضراء ، عسى ألا يكون الأمر بعيداً أو طويلا

ستجدون في هذه المزرعة ، مكأنا جميلا للراحة والأمان .

وقريب من هنا ، فرع نهر صاف وبإمكانكم السباحة أيضا . كما ستتعرفون . فيما بعد . على الضابط السابق والمسؤول السياسي جبور القناقي، إنه شخصية هامة وجذابة ، يحب إفادة الآخرين.

ومساعدتهم في كل الأوقات ، ثم بابتسامة مكتومة تابع

- عيبه أنه يحب النساء ، بعد صمت ضئيل أردف : ومن منا لا

يحب النساء : حتى نحن الرهبان تعاملين بلطف وكياسة .

ضحك الجميع مجاملين للطرفة ، التي بدت في غير موضعها .

خاصة أنها صدرت من راهب . إلا أن جويل لم تجامل ، بل تأملت بعمق ، ولم يدر احد أين ذهب بها التفكير ..

في الدير غرف كثيرة ، كأنت مخصصة للنساك والرهبان والزوار ، بعضها مفروش بالأسرة ، وبعضها الآخر للجلوس أو الطعام . وقد قدم الراهب انطون لضيوفه عشاء مفتخرا ، بمقياس أيام الحرب تلك ، حيث يفتقد كل شيء تقريبا ، ولكن بدا أن الأب عنده في خزائنه كل شيء . ثم وزع عليهم غرف النوم، وفيها لوازم المنامة نظيفة وجاهزة . وخص جويل بأفضلها ، وقد كأنت للمطران قبل أن يغادر ، وبالغرفة المجاورة لغرفتها ، كأنت غرفة ياسر. وحصل الأخرون كل على غرفته وناموا تلك الليلة بعمق كبير بعد تعب مضن ، لكن أبا الحارث لم يتم كثيراً ، فقد وزع الحراسة بينه وبين حواش. وبقيت الحراسة مؤمنة طيلة تلك الليلة .

في الصباح ... أول من استيقظ أبو أرز ، كأنت العصافير تزقزق واليمام يترغل على أغصان الزيتون والكرمة والنخيل . الجو صاف وهادئ. والمزرعة الكبيرة في حقيقتها ، غابة من كثرة الأشجار وتكاثفها ، ويبدو أن نهراً قريبا أو فرعا من نهر يمر بقربها . وقد لمس ابو أرز ذلك بالرطوبة الزائدة، وبخرير المياه السموع بهداة المكان .

فجأة دوت انفجارات قوية ، وكأنها تسقط فوق رؤوسهم ، وسمعت انفجارات من الشمال ، ربما من الموصل ، التي لم تعد بعيدة كثيراً عن مكانهم الجديد. وحام طيران

له دوي ، ويصدر منه لهب حال إطلاق صواريخه . ومن بعيد شوهدت حوامات ، تقذف بحممه أماكن قريبة من الدير ، استيقظ الجميع مذعورين ، وتجمعوا في الساحة ، وهم

بلباس النوم يسألون ابا أرز وهواش، اللذين شهدا قبلهما هجوم

الطيران عن بعد .

قال هواش:

- إنها طائرات الأباتشي، تهاجم إحدى البلدات القريبة، وربما تضرب نواحي الموصل ، إضافة إلى صلاح الدين - لعلهم اكتشفوا وجود

قال أبو الحارث ، مخاطبا الأب أنطون الذي ظهر بكامل أناقته مقاومين .

لابسا مسوحه الديني ، ولم يظهر عليه أدنى خوف :

الا يوجد في الدير مكان نحمي به السيارات ؟

لا ... لا يوجد أفضل من المكان الذي هي فيه.

لكني فيما مضى ، كنت أعرف مغارة النبيذ التي يمكن أن تصل إليها السيارات وتحتمي ، وهي مغارة كبيرة جداً .

ارتبك الأب أنطون ، وقال بعد تفكير :

إن المغارة التي تزعم ، هي عبارة عن قبو كبير مسقوف بالإسمنت المسلح، فيه دنان النبيذ، وكأنت تدخله سيارات الإفراغ الحمولة ، أو نقل البراميل الخشبية المملوءة إلى بقية الأديرة ، ذلك أن هذا الدير ، كان يصنع النبيذ من العذب أو البلح ، ويخمره ثم يوزعه على بقية الأديرة في تلك المناحي ، صاح أبو الحارث :

- إنه انسب مكان لإخفاء السيارات، لتدخل السيارات إلى القبو الواقع .

اعترض الكاهن أنطون بشدة ، وتغيرت ملامحه وقال :

مفاتيح القبو ليست معي !

مع من إذا ؟

إن القبو مستأجر من قبل الأستاذ جبور القناقي. وقد وضع فيه أثاث بيته الذي تخرب من القصف. لقد نقله قبل الهجوم ، والمفاتيح معه .

سكت أبو الحارث ، وعزم على حل اللغز . ثم لماذا يخفي الأب انطون عنه أشياء ، وتربطهما صداقة وصلة ، فلقد هرب أبو الحارث أقارب الأب أنطون إلى تركيا، ومنها إلى أوروبا ، وكذلك الكثير من رعيته دون أجر أو مال - إن في الأمر سرا .

وجاء اتصال للأب أنطون من شخص ما ، فتنحى عنهم ، وذهب لمكان قصي ، بحيث لم تسمع كلمات الأب أنطون ، لكنه عاد ممتقع الوجه ، فقال أبو الحارث :

خير ما الأخبار ؟

لقد تعطلت المولدة ، ولم نعد نسمع الأخبار إلا من اتصالات الأصدقاء .

- لدينا مولدة سنستخدمها لرؤية أخبار التلفاز .

قال ابو أرز : وأشار للفنيين ببدء العمل ، ثم أردف :

لم تقل ما الأخبار التي أدلى بها صديقك .

- في الحقيقة ، اخبار هامة جدا . فمنذ البارحة والأمكنة القريبة مطوقة ، ويشن الغزاة هجومات متفرقة على مواقع المقاومين . لقد وشى شخص بأبناء صدام : قصي ، وعدي ، ومصطفى ابن قصي ، وعمره أربع عشرة سنة، ويعتقد بأن الواشي نواف

الزيدان، الذي طمع بالمكافأة، وقيمتها ثلاثون مليون دولار إضافة إلى حقائب ، فيها مصاغ ودولارات . والقصة كما رواها لي الصديق ، أن الثلاثة نزلوا في دار نواف الزيدان، ولم يكن موجوداً في النار ، وكان قد أعطاهم مفاتيحها لأن الدار بالأساس لعطية من صدام بواسطة احد أولاده، الذي تربطه بهم مصالح . فقد كان نواف مقاولاً مشهوراً واستفاد من علاقته بأسرة صدام . حتى قيل إنه التقى بصدام ، وأصبحت تربطهما صداقة . وأنه استغل تلك الصداقة في تنمية استثماراته.

عاد نواف ومعه أخوه فشاهدا ، أولاد صدام في داره ، وكانوا نائمين ولم يشعروا بدخولهما ، أخذا الحقائب وذهبا إلى قائد القوات الأمريكية ويدعى (ديفيد برثيوس) ، وأخبراه أن عديا وقصيا ومصطفى في داره نائمين ، وأنه يستحق الجائزة . وكان في

مقر دافيد برئيوس أحد شيوخ الموصل المترب جدا من برئبوس ويتواجد ليلا عنده . وهو الذي روى القصة لصديقي الذي اتصل بي منذ قليل .

فجهز ديفيد قوة كبيرة وقال النواف :

اذهب إلى دارك ، فان وجدتهم أعطنا إشارة ، ثم انسحب وانضم إلينا - حوصرت الدار بعشرين دبابة وعشرين مدرعة وأكثر من عشرين عربة (هامفي) واحكموا الطوق . ونادى مناد بمكن الصوت :

أنتم محاصرون ، سلموا أنفسكم .

٤٦استيقظوا على سماع الانفجارات والأصوات . وعرفوا أنهم محاصرون . فأطلقوا النار على القوات الأمريكية من قذائف أربي جي) ومن رشاشات يحملونها ، وقيل : إنهم قتلوا ثلاثة عشر جنديا أمريكيا . قبل أن تطلق عليهم القوات الأمريكية صواريخ غازية وحرارية . ففجروا الدار ثم حصلوا على الجثث مشوهة، فجملوها وخيطوا تهتك الأجساد وعرضوها على الشاشات .

قال ابو أرز :

كيف يكون نواف الخبز والملح ؟

ضحك الأب أنطون السؤال ساذج ثم قال :

إنه الطمع والخيانة . لقد هزم الجيش العراقي بالخيانة ، مع انه من أقوى جيوش المنطقة . لقد تمكن نواف الزيدان ، من الحصول على عقود عمل حكومية مقابل خدمات معينة كان يقدمها لهم .

والبيت الذي قتل فيه أبناء صدام كان أعطية من صدام نفسه . إنه نموذج لفئة الانتهازيين ، الذين كانوا منتشرين كثيراً داخل مؤسسات النظام والحزب الحاكم .

حزن ياسر الخوخة كثيراً ، لأنه عانى من مرارات الخيانة والغدر ، وقال في سره : (لماذا لم تحم أسوارك بالعدل يا صدام ؟ ولم تسيج بيتك بالتقوى . وهل الإغداق على مثل هؤلاء من العدل أو التقوى؟ يشفع لك أنك لم تخن وطنك . لقد خانك الرأسماليون والمرتزقة

واللصوص الذين أويتهم ، كما خانك من أصدقائك العرب الذين وثقت بهم وحاربت عنهم .

.. فماذا أفادك علماؤك وخبراؤك ؟ غدا ستراهم مقتولين ، أو يعملون في مراكز ابحاث تابعة للغرب ليقووا أوطان أعدائات . سيبنون القواعد برجال تعبت أنت على تعليمهم ، وصرفت عليهم الأموال .)

قالت جويل في سرها : (دائما المشكلة هي الخيانة . أليس من وضع القنبلة في السيارة ، فانفجرت وقتلت زوجها خيانة ؟ لو لم يفعل شيئا سوى قول الحقيقة بكل صراحة . وهل الحب الموعود الذي يطلبه ياسر منها ، ليداوي جراحه إلا نوع من الخيانة المقنعة؟ كيف تسلم جسدها لرجلين ؟ وإن كان الأول ميتا حقيقة لكنا، عائش ، ما زال بين الأعصاب والشرايين وفي الدم وفي كل الأماكن فإن الثاني مجرد رفيق درب . وهل يمكن للذكريات أن تمحى بجرة قلم ، أو نزوة عابرة ؟ إنه كان ومازال يعيش في الروح والجسد . إن ذلك لن يكون ، والحب الموعود سراب. ويجب مفاتحة ياسر بكل هذا ..

قال أبو الحارث

متى يمكن لنا أن نتابع باتجاه بغداد ؟

أجاب الأب انطون :

ليس قبل حضور جبور القناقي .

متى سيحضر ؟

بعد يوم أو يومين .

(4)

مر يومان ولم يأت القنافي، وبدا الملل يتسرب إلى أفراد البعثة وفي هذا الصباح وبعد أن شرب ياسر وجويل القهوة قال لها :

ما رأيك بجولة في هذه الغابة . فقد قيل أن جدولاً يمر بها من الجهة الغربية ، يمر بانكسار فيشكل تساقط مياه ، ثم يصب في تجمع الشبه ببحيرة ، للمشي فنتريض ، ونستطلع الأماكن المحيطة . ارتدي لباس السباحة تحت فستانك الواسع . سأخذ معي بقية اللوازم، يمكن أن نسبح قليلا إن وجدنا المكان مناسبا .

فكرة صائبة ، وأشعر أن جسدي بدأ يتراخى قليلا منذ تركت التمارين في (الجيم) بعد سفرنا . على الأقل رياضة المشي تفيد . ولكن السباحة تحتاج لحوض معقم (بالكلور) .

المياه الطبيعة النقية ، أفضل من تلك الأحواض، وما توفره الطبيعة خير مما دجنه الإنسان... انزلي من برجك العاجي أيتها البرجوازية ،

ضحكت وقالت :

لم اكن في يوم من الأيام برجوازية ، وقد مقتها كثيراً . ولكني لا انكر انني في بعض الأحيان كنت أسيرة البروتوكول .

أنا كذلك أشعر أننا كلنا نعاني شيئا من الازدواجية ، ويأسرنا الآخرون بوجودهم .

تمشيا في الغابة ، وكأنت أشجار النخيل السامقة قد انكسر بعضها من شظايا القصف ، أما أشجار الزيتون فقد بدت اشد تماسكا و نضارة ، وكأنت عرائش الكرمة المتسلقة ، قد أتت أكلها وكبرت عناقيدها .

والطيور ما تنفك تغني وتطرب ، وتقفز بين الأغصان والأشجار .

قال ياسر :

رغم كل الماسي والنكبات ، تبدو الطبيعة جميلة فرحة . شرور الإنسان فقط تزعجها ، لأنها تتدخل فتغير فطرتها ، وتحد من منافعها ، لكنها ما تلبث أن تحتوي اخطاءه و شروره ، وتعاود سيرتها الخيرة . إن السعي وراء الحب ، يغيرنا للأرقى فما من أحد يسعى وراء الحب إلا وينضح أثناء رحلته فما إن تبدئين رحلة البحث عن الحب .

حتى تتغيرين من الداخل والخارج .

احتاج لفترة لأخرج من الماضي . كأنت المأساة كبيرة بحجم الحبيب الذي رحل . تمشيا صامتين... بعد هنيهة شاهدا جداراً عظيما من الرخام ، عليه تماثيل لأسد مجنح ، ولوحات لكتابات

مسمارية ، كأنت منقوشة على الحجر ، فقال لها :

كأن هذا المكان قبل أن يكون كنيسة ، كان المعبد قديم . لقد مر على هذه البلاد اقوام منذ الأزل ، تركوا بصماتهم على الحضارة الإنسانية . وها قد جاء من يحاول تدمير تلك الحضارة . لكنهم لن

يفلحوا أو ينجحوا ، فقبلهم المغول القوا الكتب في نهر دجلة حتى اسود ماؤه ، محاولين طمس تراثه ، لكنهم لم يتركوا بصمات حضارية ولا آثاراً . ومنذ أكثر من أربعة آلاف عام ، وضع حمورابي أول تشريع قانوني في تاريخ الإنسان ، ما تزال بنوده تدرس في الجامعات ، كأول فكر قانوني أوجده الإنسان على الأرض. وما الآشوريون والبابليون والحموريون والسومريون: إلا قبائل من هذا الشعب متجانسة .

تركت بصماتها على الأرض والإنسان . يروى أن النبي إبراهيم الخليل هو أول من دعا إلى التوحيد في تلك الأصقاع ، ثم هاجر إلى فلسطين ليترك ذرية هناك ، وذهب بعدها إلى الجزيرة العربية لينشئ سكنا وعمرأنا ، ويستخرج ماء من صحراء ، وينشئ ايضا زرعا في واد غير ذي زرع ، ويبدو أن هذه المنطقة من بلاد الرافدين إلى سوريا وعمريت إلى لبنان والجليل وفلسطين و نهر الأردن ، الذي عند فيه يوحنا السيد المسيح ، إلى الجزيرة العربية نفسها . كل هذه الأرض ذات أصل واحد ، وحضارة قديمة واحدة . هي وسط العالم القديم ، وهي منبع الحضارات ، وأصل الديأنات .

قالت جويل :

نعم الأمر كذلك ، فالمسيحية أيضا حضارة خرجت من فلسطين ، وأنتشرت في أصقاع الأرض ، تاركة بصماتها على شعوب كأنت وثنية وهمجية ، ولم تكتمل إنسانيتها ، رسالة المحبة التي أتى بها المسيح ، هي الإنسانية الحقة التي ميز الله بها الإنسان ... الذين اعتنقوها من بعض حكام الغرب لم يفهموا جوهرها ولو فهموا

مراميها لما كأنت هناك حروب . ولا كنا نشهد اليوم هذه الحرب الظالمة دون أي مسوغ او سبب

و ما زالا يتابعان السير ، حتى وصلا إلى النهر . لم يكن جدولاً ، بل كان نهرا ينبع من الأعالي ، وينحدر إلى تلك الأرض ثم يصب في بحيرة نبت حولها القصب ، وأحيطت بأشجار مزهرة بالليلك و البنفسج .

أخذا بالمنظر فجلسا ، على صخرتين ناهضتين فقال :

المنظر شاعري ، يحرض العواطف والأحلام.

قالت :

على الإنسان أن يعيش حالات الفرح والابتهاج، ولو كان في عين الخطر . إن العواطف لا قانون لها ولا حدود . و ليس بالمستطاع السيطرة عليها وأجد أن من الوفاء الاحتفاظ بذكرى الأناس مروا بحياتنا ، وتركوا بصمات على قلوبنا وحواسنا ، ذهبوا لكنهم أو دعونا عواطفهم ، فهي أمانة يجدر حفظها .

قال ياسر :

الحياة تتجدد باستمرار . الأوراق والأزهار التي ترينها أمامك اليوم ، ستسقط من الأشجار إلى الأرض حين يحين أوان سقوطها .

فتذبل ثم تتحلل وتدخل في عناصر الأرض ، لكن الشجرة ما تلبث بعد الشتاء ، أن تدفع بأوراق جديدة ، و أزهار جديدة تجدد فرحها الذي هو جزء من فرح الطبيعة نفسها . و أنت يا جويل ، ما تزالين في شرنقة حياة مضت . فلماذا لا تخرجين من الشرنقة فراشة ملونة ،

تجوب رقصا سماء الحرية، وتقبل الزهر المتفتح بنشوة ، وتمنح الحياة القها .

حاولت ذلك فلم استطع ، واعتبرت أن ذلك نوع من الخيانة .

قال ياسر :

إن قوانين الحياة ، أقوى مما يضع الإنسان في طريق حياته من

عراقيل ، يعتقد أنها من الوفاء . علينا أن نكون أوفياء للطبيعة و الحياة ، لأنها هي الأم التي وضعت قوانينها فانصرفنا عنها ، ووضعنا نحن مع الأسف القوانين ، التي تحد من فطرتنا وحريتنا و حيويتنا .

قالت جويل :

لنترك الأمر للزمن ، فثمة مشاكل لا يحلها إلا مرور الزمن . و أنا الآن أتأمل في حكام المنطقة ، الذين أوصلوا شعوبهم إلى ما أوصلوهم إليه .

نحن العرب بارعون في جلد الذات ، أو إلقاء الأخطاء على مشجب نخترعه ، أو نلوم الآخرين محمليهه الأخطاء . كنا في لبنان نقول : (إن قوة لبنان في ضعفه) ، وسوع حكام من لبنان هذه المقولة . وبرعوا فيها . أما أنا فإني أقول : إن ضعف العراق كان في قوته . عاكسا النظرية ، مثلما عكس ماركس نظرية هيغل في الدولة . فهذا الشعب العظيم ، الذي بنى - في أقل من عشرين سنة . جيشا ، اعتبره الاستراتيجيون سادس جيش في العالم، من حيث القوة والتجهيز. والعراق الذي أنشأ أرضية ، انبتت علماء صالحين لإنتاج الاختراعات ومراكز الأبحاث ، عرف مكمن القوة وسلك سبلها . فخوان كل ذلك الأعداء. وأولهم إسرائيل التي ما إن علمت بأن أول حجر الفاعل ذري يقام في العراق ، حتى بادرت و قصفته بمباركة من أمريكا و الغرب .

و هذا الجيش الذي حب في حرب تشرين ، و ذهب لواء منه على جنازير الدبابات، لتعذر وجود حاملات لها ، هب مسرعا إلى الجولان النجدة إخوته في الحرب . قوته هذه جلبت له الأعداء . لو بقي على ضعفه لما التفت إليه أحد، ولما طمع في بتروله أحد . كان يكفي أن يصدر ويقبض . يعطي لكل حصته وعمولته ، كما يفعل بعض جيرانه . لكن الخطر الحقيقي دائما ، يأتي من الداخل لبتضافر مع العدو الخارجي ، ولقد وعظ الشيخ حامد الأغبر مرة ، وكنت حاضراً معه في مسجد التقوى ببيروت ، و كان يشرح الآية الكريمة : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنا نصارى ذلك بأن متهم قسيسين ورهبأنا وانهم لا يستكبرون (فمنذ القديم كان اليهود يتحالفون مع

المنافقين والمشركين ، ضد إخوانهم وبني جلدتهم ويخونونهم . ولقد كان للمنافقين في الإسلام دور في التشظي والانقسام . المنا القون ذرية بعضها من بعض . من أبي رغال حتى أتفه مدع جاء على ظهور الدبابات الأمريكية . أناس يدعون أنهم أتوا ومعهم الحرية والديموقراطية الغربية ، ولكنهم منافقون ادخلوا المحتل تحت شعار كاذب - حصان طروادة : ذلك الفخ الذي أصبح مضرب المثل في الخداع الناجح المدمر، لقد تحالف منافقو الداخل مع العدو الخارجي ، الذي

يوجهه المحفل . وقد لاذ بصدام و حزبه منافقون ، وهذا شأن كل نظام فردي دكتاتوري احتضنهم فلسعوه . أكرمهم و خدعوه ، ثم سلموا أولاده للمحتل مثلما خان يهوذا الاسخريوطي ، الذي سلم معلمه للرومان واليهود، لقاء ثلاثين من الفضة ، وكان على صدام أن يعرف الصديق من العدو .

قالت :

لماذا حدث ذلك ؟

لأن الحاكم الديكتاتوري تسيره رغبات و نوازعه و ميوله الشخصية . في الوقت الذي تتحرك فيه الدول المتقدمة الأخرى بمصالحها التي تخدم شعبها أجمع . الديكتاتور تحركه مصالحه الشخصية وأمجاده ومصالح قبيلته وفئته التي تنصره . مصالح طائفته أحياناً ، بغض النظر عن مصالح شعبه ، وتأخذه العزة بالإثم عندما يكرس كنصف إله . ينادى له في المنابر وأحياناً يزور التاريخ حسب رغبته . أما الدول المتقدمة فلها مجالس تخطيط ، ومجالس حكماء، ومجالس للرقابة، إضافة إلى المجالس البرلمانية ، ومجالس الشيوخ ، ولا يستطيع رئيس محددة مدة بقائه في الدستور أربع أو خمس سنوات : البقاء أكثر من ذلك . أما الديكتاتور فيبقى إلى أن يشاء الله ، واضعاً واجهات برلمانية شكلية وكرتونية . يدعي أنها جاءت من الشعب، لكنه في الحقيقة هو من جلبها فوضعها للخداع. تقدس اسمه ، وتسبح بحمده . و ينقلب حزبه إلى مصفقين ومهرجين وكذبة.

غايتهم الانتفاع بخيرات السلطة، ويصبح الوطن مزرعة له ولأولاده من بعده ويبقى معظم الشعب محروما، وتبقى الفرص غير متكافئة ، لأن الميزات توزع على الأتباع، والمناصب يأخذها الموالون. لا القادة الأكفاء الأقوياء ، إن الديكتاتور - أي ديكتاتور في العالم . يهمه أن يكون القادة عنده والمساعدون له ضعفاء ، حتى يبرز كالتمر المنير وهم يحيطون به كالنجوم ذات الضوء الخافت. إن ذلك يرضي نزوعه ومطامعه ، أما الأقوياء فيذكرونه بضعفه وقد يحرجونه .

قالت :

هذا صحيح ولكن كم يلزمنا من الوقت لإزالة أدرننا ، وما علق بنا من أوضار نتيجة تلك السياسات العرجاء ، التي سببت

لشعوبها الكوارث والفواجع ..

على فكرة (ما رأيك أن نسبح في النهر ، ونزيل الأوضار والأدران ، بمياه حقيقية نظيفة ، وليست كمياه دير الآب انطون المخزنة في براميله العتيقة ، لمست ذلك من الحمام الصباحي .

من جهتي أنا مستعدة ، وليس علي إلا خلع الفستان هذا . قال :

وأنا كذلك مستعد، وقد لبست (مايو) السباحة.

لم أكن يوما لأتوقع أن أسبح في نهر طبيعي كما يفعل الفتيان ..

بأنت الأفكار البرجوازية المختبئة .

لا تزاود علي : سأسبقك إلى الماء .

خلعت ثوبها الفضفاض . فأضاء بياضها الناصع المكان ، وأصاب ياسر الذهول ، كأنت ترتدي مايو من قطعة واحدة ، يخفي البطن :

لكنه يكشف الصدر ، فيظهر جزع الثدي، ومعظم الظهر ، عنقها جميل طويل يتدلى منه صليب ذهبي لامع ، كأنت تبدو وكأنها في عشرينياتها، ولكنها في الحقيقة قد بلغت الأربعين .

قالت:

ماذا أصابك ؟ ! الم تر انثى في لباس السباحة أم أنك لا ترتاد

المسابح ؟

نعم لم أر أنثى بهذا الجمال في حياتي ، هذا جمال طاغ مسيطر.

تبسمت ضاحكة من قوله ، واردفت :

قم واخلع ثيابك ، وخذ بيدي ، فأنا لأول مرة أسبح في مثل

هذا المكان .

خلع ثيابه ، فتعلقت نظراتها بجسده كان متناسقا مفتول العضلات، وقد عودته جورجيت على الرياضة في ملعبها القريب .

ووجد أن الرياضة خير وسيلة لإبعاد القلق وإدخال المسرة للنفس .

قالت :

أنت أيضا تتمتع بجسد رياضي رائع . لكنني لم اندهش كما اندهشت أنت .

اخذ بيدها وجرها إلى الماء. للماء لذعة رغم حرارة الفصل .

واستمرا في التوغل حتى وصل الماء لأكتافهما ، فقالت :

علينا الا نتوغل كثيراً ، فقد نصادف قاعا عميقا.

لا تخافي أنا معك !

أنتِ لسبح جيداً ، ولكن ليس بالمهارة الكافية التي تتطلبها هذه الأماكن، لأنها تحمل المفاجآت .

ابتعد كل عن الآخر قليلا وبدأ السباحة ، وصلت لماء عميق وأرادت الوقوف على رجليها لتستريح فغطست في الماء والغير جسدها كله ، فارتبكت وصارت تتخبط ، كما لو أنها ستغرق ، صاحت :

ياسر أنقذني ، وخذ بيدي :

ذهب إليها سابحا وامسك يدها ، فتعلقت بكل جسده ، ولما عادا إلى المنطقة التي غمرتهما حتى الأثداء توقفا للراحة ، كان راغبا فيها الأبعد الحدود بعد أن لمس حرارة جسدها، فأمسكها من خصرها المغمور بالماء الصافي وشدها إليه ، واقترب منها أكثر حتى الأصقا تماما ، وتناول شفتها السفلى فلم تقاوم . وغابا بقبلة حارة طويلة... بعد وقت تخلصت منه وقالت :

لنخرج من الماء ، نسيت أن اليوم هو الأحد ، وقد وعدت الأب انطون بأن أحضر قداسه ، ولو اقتصر على ثلاثة .

من الثلاثة ؟

أنا وهو ومساعده ، الذي يقدم لنا الطعام .

بل سنحضر كلنا معكم ..

بعد أن جففت جسمها وشعرها ، قالت له :

ادر وجهك للخلف، ولا تنظر إلي حتى أوعز لك لأنني سأخلع

(المايو) وانشف مزيداً من جسدي ثم ارتدي ثوبي .

ضحك ياسر وأشاح بوجهه للخلف كما أمرته . وبدأت بخلع لباس السباحة ، وأصبحت عارية تماما ، وفي هذه اللحظات دوى انفجار هائل ، وكأنه يقع على بعد مئة متر منهما ، فخافت وارتمت في حضنه .

فقال لها :

لا تخافي : الانفجار بعيد ولن يصيبك سوء ، لكنني محظوظ .

فقد تمنيت أن يحدث ذلك . فضربته برفق على رأسه ، وكان وجهها قريباً من صدره ، فاستندت إليه لحظة ، فشعر بحنان افتقده منذ زمن .

لبسا كامل ثيابهما وأحسنا من هندامهما ، وذهبا باتجاه الأب انطون ، يستطلعان الأخبار وموعد القداس. كان الأب أنطون يستعد

لقداسه . وأبدى الجميع استعدادهم لحضوره .

ولما صعد الأب ليلقي قداسه وموعظته ، كانوا هم يجلسون على

المقاعد يستمعون . قال :

ساتلو عليكم اليوم شيئا من إنجيل (متى) . وقليلا من القرآن .

وسيكون اجتماعنا المقدس هذا . خطبة جمعة وقداس أحد في وقت واحد ، فإيماننا واحد، وربنا واحد . قال يسوع المسيح :

) قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . أما أنا فأقول لكم : إن كل

من يغضب على اخيه باطلا ، يكون مستوجب الحكم ، ومن قال لأخيه يا احمق يكون مستوجبا نار جهنم ، فإن قدمت قربانك إلى المذبح . وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك - فاترك هناك قربانك اندام المذبح ، واذهب أولاً واصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال ، وقدم اقربائك .

وقال النبي العربي الكريم محمد بن عبد الله :

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

قال المسيح :

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن . أما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها ، فقد زنى في اقلبه . فإن كأنت عينك اليمنى تعثرك ، فاقلعها والقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله في جهنم .

في القرآن :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى

توقف الأب انطون عن القراءة ليقول :

كان المسيح يضع أسس الأخلاق والتعامل ، في الدنيا وفي العالم الآخر ، لكنه لم يهمل الأمثلة التي تتكلم عن الأمم والشعوب ، وعن الملكوت ونهاية العالم - انظروا كيف يصف الحياة... قال :

يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرعا جيدا في حقله . وفيما الناس نيام ، جاء عدوه و زرع زيونا في وسط الحنطة ومضى ، فلما طلع النبات ، وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزيوان أيضا ، فجاء عبيد رب البيت و قالوا له : يا سيد، اليس زرعا جيدا زرعت في حقلك فمن ايين له زيوان ؟ فقال لهم : إنسان عدو فعل هذا ، فقال له العبيد : اتريد ان نذهب ونجمعه ؟ فقال : لا ... لئلا تقلعوا الحنطة مع الزيوان وأنتم تجمعونه . دعوهما ينميان كلاهما معا إلى الحصاد ، وفي وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزيوان واحرموه حزما ليحرق ، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني .)

وفي الإسلام جاء في حديث للنبي الكريم :

تبسمك في وجه اخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة ، وتبصرك الرجل الرديء البصر صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق صدقة ، وإفراغك متاعك من دارك في دار اخيك لك صدقة الا ترون كم هما في الأفكار، والأخلاق والسلوك والنظرة للحياة متقاربان ، بل يكادان أن يكونا متطابقين !

كان يلقي يسوع موعظته ، ويضرب أمثلته وسط جموع الناس في البراري ، وأحياناً على الجبل . وجاء إلى البيت ، فتقدم إليه تلاميذه فقال لهم :

أيضا يشبه ملكوت السموات كنزا مخفيا ، في حقل وجده إنسان فأخفاه ، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له ، واشترى ذلك الحقل .

أيضا يشبه ملكوت السموات إنسانا تاجرا يطلب لآلى حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة باهظة الثمن ، مضى وباع كل ما كان له واشتراها ، أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر ، وجامعة من كل نوع ، فلما امتلأت أصعدوها على الشاطئ ، وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية ، وأما الأرديا‌ء فطرحوها خارجا .)

هذا ما كان يسوع المسيح ، يعظ به الناس على الجبل وفي الساحات ، فيتجمهرون و يأتونه بالعميان فيبصرون ، وذوي العاهات فيبرؤون من عاهاتهم. والعاهة أحياناً تكون نفسية وغير مرئية .

جاء في الحديث الشريف :

) دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي اطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)

وجاء أيضا : (بينا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فتزل بترا فشرب منها ثم خرج فإذ كلب يأكل الثرى من العطش ، فقال لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي ، فملا خفة ثم امسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له)

كان النبي محمد يقول :

(الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم أعياله) أما يسوع : فقد

اعتبر الإنسان وذريته كأبناء الله ، فكان يخاطب ربه ويقول :

أبونا الذي في السموات ليتقدس اسمك

لم يقل المسيح : إن الله هو رب الجنود ... ولم يفضل شعبا على شعب ، فيكون له شعب الله المختار والآخرون خدم ، ولم يقل اغر بلدان الآخرين ، أو اقتل من ليس من ملتك ، انما بال بوش ، يدعي أن نبوءة من المسيح نزلت عليه ، وأوحت له باحتلال العراق ، وقتل العباد ، وانتهاك الحرمات . إن تلك الوحشية في القتل ، وسفك الدم .

مقدمة ضرورية لابد منها ، لنزول المسيح إلى الأرض مرة ثانية . يا

للمنطق السقيم البعيد عن روح الله !

ليكن الرب معنا ، وليئر طريقنا .. آمين ..

أنتهى الأب أنطون من موعظته ، ونزل من على المذبح ، مصافحاً

مستمعيه ، وقد فرحوا بموعظته فسأله ياسر :

لقد تخيلتك يا أبأنا، وأنت تلقي موعظتك ، الشيخ حامد الأغبر.

وهو يخطب في صلاة الجمعة ، فكان يربط الدين بالحياة ، لأن الدين انزله الله لخدمة الإنسان وليس العكس ، كما يحلو لبعضهم أن يجتهد .

قال الأب أنطون :

نعم هما فرعان من شجرة واحدة ، لذلك أنا أحفظ الكثير من

نصوص القرآن . واستشهد بها في القداس .

قال مساعد الأب أنطون :

لتذهب إلى المجلس ، ونشرب الشاي الساخن .

ثم انسحبوا إلى القاعة ليشربوا الشاي ، وبعد أن استقر كل في

مجلسه ، وتناول كأسه قال ياسر مخاطبا الأب انطون :

- لقد تأخر جبور القناقي ، وأرى أن تذهب إلى بغداد لتمارس المهمة التي كلفنا بها .

قال الأب أنطون :

انتظروا قدومه اليوم أو غداً :

قالت جويل :

لقد تأخرنا عن الوصول للمنطقة الخضراء ، و أصابنا ملل وضجر ، وحزن وفراغ ومزاج منخفض، رغم أننا سعدنا بوجود الأب انطون بيننا ، وبموعظته الجامعة الرائعة التي انتهت لتوه ، والتي كشفت مزاعم بوش ، وتستره بالإنجيل ، ومزاعمه بظهور وحي له الهمه الغزو .

لكننا نشعر أننا قد قصرنا في تنفيذ المهمة ، التي أتينا من أجلها .

قال الأب أنطون مكرراً

سيأتي اليوم أو غدا جبور القناني . وسأتصل أنا به لاحقا .

الأعرف موعد قدومه . لقد أوصاني بضرورة بقائكما حتى ورسوله .

قال ابو أرز :

لقد استفدنا من موعظتك يا مولانا كثيراً ، وهذه الأمثلة يمكن إسقاطها والاستفادة منها في كل زمان ومكان . واسمح لي أن أقوم بجولة أفق في مزرعتك وجوارها للاطلاع .

لا مانع من ذلك ، وقد سبقكم اليوم ياسر وجويل إلى هذا . و أظن أنهما وصلا إلى البحيرة والجدول

قالت جويل :

نعم يا أبأنا ، كان ماؤه صافيا ولم أجد أطيب منه ولا اروع. لقد شحنت بطاقة روحية ، ظننت اني سأفتقدها إلى الأبد . ونظرت

لياسر ... ثم تابعت :

وقد طاب لنا المقام عندك ، وسررنا بالإقامة في كنيستك . لكن ضميرنا وواجبنا ، يدفعنا للقيام بالعمل الذي كلفنا به .

قال أبو الحارث :

إن الأمريكان ، وقوات التحالف سيغرقان في مستنقع العراق .

وسيدفعان أثمانا باهظة ، وقد يؤثر كل ذلك على اقتصاد العالم

برمته .

قال الأب انطون :

إن ما تقوله يا أبا الحارث صحيح . فلقد قدر الخبراء بالورقة والقلم ، كلفة الغزو العراق بـ ٦ تريليونات دولار . ستدفع مناصفة بين أمريكا والعالم. وقد أعلن جوزيف ستيغليتز) عالم الاقتصاد الأمريكي العالمي ، والحائز على جائزة نوبل ، أن هذا الرقم صحيح وقد يتصاعد . وفي مرحلة التحضير للحرب على العراق أدعى (بول وولفوفيتز) نائب وزير الدفاع الأمريكي ومهندس الحرب ، أن الحرب ستمول من دخل العراق النفطي، أي من دون تكليف المواطن

الأمريكي أي عبء مالي. وبعده ادعت الإدارة الأمريكية أن كلفة الحرب لن تتجاوز ٦٠ بليونا . وعادت لتعترف مؤخرا ، أن تكلفتها وصلت إلى 140 بليون دولار، وبعد فترة قدرت اللجنة الاقتصادية في الكونغرس ، أن نفقات الحرب النهائية ستصل إلى تريليوني دولار . ويرى (ستيغلتن) أن حرب العراق ستسبب أسوا كساد في الولايات المتحدة ، منذ عام ١٩٣٩ .

قالت جويل :

ما الذي تستطيع فعله هذه التريليونات السنة ؟ قال الأب

انطون :

ان (ستيغليتز) يفسر في كتاب اصدره اخيرا بعنوان (الكلفة الحقيقية للحرب في العراق) ، ما يفيد بأن تكلفة الحرب ، تجاوزت ميزانية الأمم المتحدة مع كل مشاريعها حول العالم ، وهي تتجاوز كلفة الحرب العالمية الثانية التي بلغت ٥ تريليونات دولار . إن نفقات الحرب في شهر واحد فقط، تزيد على الموازنة السنوية لـ ٣٧ ولاية أمريكية . لقد سألت يا جويل ، ما الذي يمكن أن يفعله مبلغ تريليونات دولار ؟ سأقول لك ماذا يعني ذلك بدقة :

ذهب الأب انطون إلى طاولة فوقها العديد من الكتب والأوراق .

سحب ورقة وأتى بها إلى مجلسه قال :

بحسب تقديرات الاقتصاديين فإن المبلغ يستطيع فعل الأعاجيب فهو يكفي لـ :

توفير رعاية صحية ، لما يزيد عن ثلاثة مليارات طفل حول العالم.

دفع نفقات تسعين مليون مدرس ، يساهمون في القضاء على الأمية في العالم .

بناء خمسين مليون منزل ، تحل مشكلة آلاف اللاجئين المشردين .

تكلفة حرب العراق في يوم واحد فقط ، تكفي لبدء تعليم ثمانية وخمسين ألف طفل أمريكي، وتمكين سنة وستين ألف طالب فقير ، من دفع نفقات الجامعة، ودفع مرتبات سنوية لأحد عشر ألف حارس حدود ، وأربعة عشر ألف شرطي إضافي

تغطية نفقات الأمريكيين الصحية ، لخمسين سنة مقبلة .

تغطية النفقات التعليمية لثلاثة واربعين مليون طالب .

تغطية تكاليف القضاء على الأمراض المنتشرة في أفريقيا كالإيدز ، فضلا عن تسوية صراعات القارة. أنتهى الأب أنطون من قراءته ، ونظر إلى مستمعيه ، فرأى عيونهم ، قد اتسعت من الدهشة . وأفواههم قد فتحت على ملئها تعجبا واستغرابا . قال ابو أرز :

ماذا يقول المسيح عيسى بن مريم ، أو نزل الأرض اليوم . وعرف بما جرى وراى من أفعال أمريكا وزعمتها ، الذين ادعوا أنهم

يسيرون وفق تعاليم المسيح. وأنهم يدينون بديانته ، وينفذون تعاليم إنجيله ؟ وهل قتل الأطفال - يا أبأنا . - والشيوخ والنساء وتدمير البيوت بالصواريخ ، فوق رؤوس ساكنيها من المدنيين الآمنين هو من عمل الكتاب ، أو وحي الشريعة ؟ ماذا كان يمكن أن يقول المسيح لهم ، لو ظهر الآن ؟

قال الأب أنطون :

هؤلاء ليسوا من المسيح في شيء ، فالمسيحية دين الرحمة . ودين المحبة ، وهؤلاء قتلة مجرمون ، بعيدون حتى عن الإنسانية. فكيف لهم أن يكونوا مسيحيين حقيقيين ؟!

اسمعوا لما يقوله المسيح ، الذي جاء بالرحمة :

طوبي للجزائي لأنهم يتعرّون - طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبي للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون . طوبي للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى للأنقياء القلب . لأنهم يعأينون الله . طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون ... أنتم ماج الأرض .

ولكن إن فسد الملح ، فبماذا يملح ؟ لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجا ، ويداس من الناس . سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ

ثوبك ، فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .)

قال ياسر :

الأغرب في الأمر أنهم يصفون الآخرين بالإرهابيين ، ويقولون عن المسالمين : إنهم متوحشون مغتصبون ، وان الغزاة أتوا لمحاربة الإرهاب واجتنائه

قال الأب أنطون :

ألا إنهم هم الإرهابيون ، وهم الشيطان المطرود من الهيكل ، لا بل هم الشيطان الأكبر. وليسوا من المسيحية وتعاليمها في شيء . لو كان هناك عدل في العالم . لطرد مسببي تلك الحروب ومنفذوها من الكنيسة ، إنهم سبب الإرهاب وصانعوه ، ولكل فعل رد فعل . إن ظهور ما سمي بالإرهاب هم الذين صنعوه ، ليستعدوا به على أعدائهم ، ويسخروه لمآربهم . الإرهاب شيء ، والمقاومة للدفاع عن الأرض والعرض شيء آخر . نحن لا نؤمن بالإرهاب ولا بالعنف : لكننا نؤمن بتحرير أرضنا ، فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة .

(٥)

في صباح يوم الاثنين، وبينما كانوا جميعا يجلسون تحت شجرة جوز معمرة ضخمة ، وارفة الظلال يشربون القهوة ، شاهدوا سيارة شاحنة مقبلة باتجاه الدير : شاحنة قديمة متسخة تظهر تفاصيلها كلما اقتربت ، استغربوا قدومها ، ما غايتها ؟ ومن يكون فيها ؟

أخذ منهم التعجب كل مأخذ ، عندما لمحوا ثوراً أسود مبقعا بالأبيض ، مربوط على ظهر صندوقها الخلفي المكشوف ، وفي (كبين) القيادة كان فلاحان بثياب رثة مهملة يقبعان : أحدهما يقود الشاحنة ، وها هي الآن تدخل الساحة ، وسط استغراب الجميع ، ما عدا الأب أنطون .

الذي بدا من سحنته وكأن الأمر عادي وطبيعي ، بل لقد بدا فرحا بقدومها . تهامسوا فيما بينهم :

من عسى أن يكون هذان ؟ ولم الشاحنة تدخل وكأنها تعرف هدفها والثور ضمنها ؟ ونظروا باستفهام إلى الأب أنطون الذي كان يبتسم ابتسامة خفيفة . ربما سببها اندهاش ضيوفه وتعجبهم . أوقف الفلاحان الشاحنة قرب مرتفع صغير يوازي الصندوق الذي يقف عليه الثور، وفتحا باب صندوق الشاحنة ، وفك أحدهما الثور من رباطه ، وقاده من المرتفع الصغير ، لينزل إلى الأرض المنبسطة . وقاد الثور فلاح باتجاه الغابة وربطه إلى شجرة سرو، بينما الفلاح الآخر يقود الشاحنة إلى باب قبو النبيذ . فتح باب قبو النبيذ من قبل الفلاح الطويل ذي الجسم المشدود ، بينما عاد السائق الذي ربط الثور إلى الشاحنة . وأشار ذو الجسم المشدود إلى السائق ليدخل بشاحنته بطن قبو النبيذ . وغابت الشاحنة في القبو مع السائق في الوقت الذي أغلق فيه الفلاح الطويل ، باب قبر النبيذ بإحكام ووضع المفتاح في جيبه ، ما هذه التصرفات الغريبة ؟ وماذا يعمل السائق الفلاح بالشاحنة داخل قبو النبيذ الواسع ؟ تقدم الفلاح الطويل باتجاه الأب أنطون وضيوفه فحيا الجميع بالسلام ثم قال مخاطبا الأب انطون :

سيبقى هذا الثور في الموقع هنا يومين .. إنه اليف ومخصي .

تبسم الأب أنطون وقال :

على الرحب والسعة ، تعال اشرب معنا القهوة

افضل ان استحم ، وأغير من لباسي في الوقت الذي يملأ فيه مساعدي الشاحنة تبنا .
تبسم ثم أردف: الحظائر جائعة .

ضحك الأب أنطون قليلا ، وقال :

دائما هي جائعة ، لكنها كلما استهلكت التين كان في ذلك خير ونصر .

تعجب الضيف من أقوالهما ، لابد أن الغازا و موزا يتبادلانها . وقام ابو أرز من على كرسيه واتجه باتجاه الثور المربوط ، ثم عرج واتجه إلى باب قبو النبيذ .

ناداه الأب أنطون :

تعال يا أبا أرز ، لا تتدخل في شؤون غيرك ، فلا ينالك إلا الغبار و التعب .

رجع ابو أرز منزعجا ، وقال في نفسه :

(لابد أن في الأمر سرا . كيف يضعون التبن في قبو النبيذ ؟

الموضوع ليس موضوع تبن أو علف ، هناك سر مخبوء يجب كشفه)

عاد أبو أرز إلى كرسيه . ظل صامتا يرقب الأب أنطون - بطرف عينه اليسرى . ويتفحصه

قالت جويل :

-من هما الفلاحان يا أبأنا ؟ وهل أصبح قبو النبيذ مكانا لخزن

التين ؟ ومن الفلاح الذي ذهب لأخذ حمامه ، و تغيير ملابسه ، وكأن

البيت بيته ، والمكان خاصته ؟

سأصدقكم القول : هذا هو جبور القناقي ومساعده . وقد دخلا قبو النبيذ لشأن لا أعرفه تماما . فكما قلت سابقا المفتاح معه .

ولا يعطيه لأحد أبدا . وأما الثور فهو المرافق الثالث ، الذي يأتيان به في بعض الأحيان ، فيظل هنا يوما أو يومين ، ثم يعودان به . وعلى كل سيشرح لكم جبور القناقي، ما يستطيع شرحه ، ربما أبو الحارث يعرف أكثر منا طبيعة العمل، ولكن الجميع يلتزم الصمت من أجل الأمن والأمان .

اعترى الجميع ذهول، وأصابتهم الدهشة وحب الاستطلاع ونظروا إلى أبي الحارث بتفحص وتعجب، وكأنهم يكتشفون شخصاً غريبا مدسوسا بينهم .

قالت جويل :

أرى أن عندك يا أبا الحارث ، معلومات تخفيها وأسراراً تكتمها .

هلا اضأت لنا المسألة ، وأزلت عنا التعجب والاندهاش ؟

قال أبو الحارث :

عندي بعض المعلومات وليس كلها . لست مخولاً بإفشاء الأسرار لكنني استطيع القول إنني قد عملت يوما مع جبور في امور خطرة ، لكنها شريفة ومن أجل الوطن. وعندما قتل ابني في غارة وكان في البيت نائما ، ذهبت بعائلتي كلها إلى سوريا طلبا للأمان.
وعندما صادفتكم واتفقنا على المجيء ، كنت اخطط للقاء جبور القناقي في هذا المكان ، لننسق فيما بيننا عملاً مشتركا يفيد الجميع . وأفضل أن يقص عليكم جبور نفسه قصته ، وأن يضيء لكم ما طلبتم ، وأن يزيل اندهاشكم بنفسه أيضا . فلا يحق لي أن أتكلم عن الآخرين . أو اكشف أوراقهم وأسرارهم. والمجالس أمانات كما يقولون .

قال ياسر :

إذن أنت أتيت بنا إلى هذا المكان بناء على خطة بيتها في نفسك .

وكان الأولى أن نذهب إلى بغداد مباشرة ، دون أن ننحرف إلى هذا المكان

وتغير طريقنا . أنت تعمل لغاية لا تدركها ، وتجرنا معك لنكون ادوات ووسائل في هدفك .

قال أبو الحارث :

إن ما أفعله من اجلك أنت يا ياسر ، ومن اجل ولديك أيضا . فلا يستطيع أحد العثور عليهما سوى جبور القناقي . إن ولديك كإبرة في كومة قش كبيرة، وجبور هذا هو المغناطيس ، الذي يلتقط الإبرة بسهولة ويعطيك إياها بأيسر السبل .

قال ياسر :

ان كان ما تقوله حقيقة ، فإنني مدين لك بحياتي. ولك دين في رقبتي ، مهما عملت من أجلك فلن أسدده . إن هدفي الشخصي يؤرقني .

ويأخذ بنفسي وعقلي ، بل ربما تفوق على المهمة التي كلفت بها من قبل انطون شركس ، وقد يخالفني أفراد البعثة زملائي الرأي ، ولكن كما يقولون : فإن صاحب الحاجة أرعن.

قال أبو الحارث :

صدقوني : إن مجيئنا إلى هذا الدير في صالحنا جميعا . ولقد كنا نتعرض لخطر جسيم ، لو تابعنا مسيرنا بالطريق القديم نفسه .

قالت جويل :

حسنا فعلت يا أبا الحارث ، فلقد سعدنا بالتعرف إلى الأب انطون، وقضينا أوقاتا في هذه البقعة المباركة من أجمل أيام حياتنا .

إنها استراحة المحارب .

اخذ جبور القناقي حمامه. وحلق ذقنه التي لم تحلق منذ ايام .

لبس ثيابه الأنيقة ، فبدا وكأنه أكاديمي يدخل المدرج ، ليلقي محاضرته على طلاب جامعة .

في انتظاره مضت ساعة . اعترى الجميع قلق خلالها وتساؤل .

بدده قليلا قول الأب أنطون :

لنمضي جميعا لقاعة الطعام الداخلية وسنتناول طعاما مع ضيفنا جبور القناقي .

كان مساعد الأب أنطون قد جهز طاولة بطعام يعد في الولائم .

هو إذن ليس بفطور عادي روتيني كما كان يعبري كل يوم . بل وليمة الشخص غال ومهم . من هذا الفلاح الذي أتى بشاحنة قديمة متسخة .

ومعه ثور مبقع ؟ يحتفل به كمسؤول او ترجل مهم ، إنه جبور القناقي فمن جبور هذا يا ترى ؟ ومساعده الذي بقي في القبو مع الشاحنة ، والذي قبل انه يحملها بالتين . لماذا لم يحضر معه ؟ ثم لماذا أغلق عليه جبور قبو النبيذ ؟

دخل قاعة الطعام الفسيحة ، رجل انيق يلبس طقما كحليا ، تحته قميص ازرق و كرافة) بلون الموف . جلس في المكان الذي خصصه له الأب أنطون. وكأنت خلفه على الحائط لوحة كبيرة تمثل المسيح مع تلامذته . حياهم فوقفوا وأشار إليهم بالجلوس ، فجلس كل في كرسيه . هو الرئيس إذن ! والأب انطون أصبح احد اتباعه . أما ياسر وجويل، فقد أصابهما العجب ! وصمنا منتظرين الأحداث القادمة.

كان الجبور غرفة واسعة في الدير . وهذه الغرفة لا يدخلها أحد سواه ، ولا يعلم أحد أيضا ما بداخلها . بعض ما بداخلها خفي عن الأب انطون أيضا . كأنت الغرفة مكتبا

لرئيس الدير " وهو برتبة مطران . وقد سافر إلى السويد تاركا الدير بعهدة الخوري أنطون . لكن المطران كان وثيق الصلة أيضا ، بجبور بدرجة كبيرة . وكأنت بينهما أسرار ربما لا يعرفها الأب أنطون نفسه . وكان في تلك الغرفة الخاصة برئيس الدير ، سرداب يغضي إلى ممر سري تحت الأرض ، يمر بقبر النبيذ ، ومنه أيضا يتابع إلى خلاء الدير الواسع . ربما فوهة السرداب النهائية تصل قريبا من النهر ، وكان هذا الممر السري ، الذي بني منذ مئات السنين كان يستخدمه الرهبان في حال الخطر ، أو الاختباء ، أو حتى الهروب إذا هوجموا من أعدائهم . في تلك الساعة التي غابها ، كان جبور قد اخذ حماما ساخنا ، وحلق ذقنه التي تركت أياما ، ولبس طاقمه الكحلي ، فبدا في غاية الأناقة . هو رجل طويل مشدود الجسم في بداية الخمسين من عمره ، غزا الشيب مغراته وبعض خصل أخرى

. ولكن ما يزال شعره الأسود في بقية أنحاء رأسه غزيرا .

قال الأب أنطون وكان يجلس في الجهة المقابلة لجبور :

لنصلي قليلا تمجيدا للرب، الذي جمعنا على مائدته ، فله الحمد والشكر .

تمتم بالصلوات ، وكان صوته بالكاد يظهر، وسمع ياسر بعض كلمات منه : (أبأنا الذي في السموات ليتقدس اسمك ، ويتمجد . لتكن

مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض) ثم غامت الكلمات فلم يعد

يسمع الكثير .

بعد انتهاء الأب انطون من صلاته ، دعاهم للطعام مرحبا بجبور

قائلا :

يسعدنا أن تكون الآن بيننا أيها القائد . ولقد أنتظرك الأخوة .

أعضاء البعثة وها قد أتيت . إنني سأعرفك بهم فرداً فردا .

قاطعه جبور القناقي قائلا :

لا داعي للتعريف ، فأنا أعرفهم قبل مجيئي إلى هذا المكان .

هل التقيت بهم قبل في مكان ما ؟

لا لم التق بهم في مكان ما . ولكنني أعلم الكثير عنهم بوسائطي وأساليبي. لكنني أعرف أبا الحارث ومساعده هواش وعملنا معا فيما مضى ضد المحتل . ثم غابا للقرار بأسرهما ، بعد أن قتل اطفال من أسرهما .

قال ياسر :

- كيف تعرف عنا الكثير، ولم نرك قبل الآن ؟

قال جبور :

أنت يا ياسر سوري ، هاجرت إلى لبنان خوفا من حكم صدر بحقك ، ويقضي بإعدامك . لأن رفيقك مزيد الخشن قتل رجل أمن يطارده . هربتما إلى لبنان وتعرفتها على الشيخ حامد الأغبر في مسجد التقوى . ثم نزلت عند جورجيت التي أصبحت الآن زوجة ابيك تابعت دراستك وحصلت على الماجستير ، وربما الدكتوراه ، لكن الأهم كتابك (لقاء الحضارات) الذي رددت فيه على كتاب صموئيل هينيغتون (صراع الحضارات) ، وعندي كامل التفاصيل عن حياتك ولداك ثائر وكفاح ، اتيا العراق للجهاد . وأنت جنت تبحث عنهما تحت ستار البعثة التلفزيونية لفضائية انطون شركس.

تعجب ياسر بل اندهش ، لكنه قال :

هذه المعلومات صحيحة ، لكن من أين حصلت عليها ؟

قال الأب أنطون :

لنأكل ونتكلم بمحبة ، فنحن جميعا على هدف واحد . جمعنا الله في هذا المكان على محبته .

قالت جويل :

أنت رجل مهم ، بل خطير يا سيد جبور، لقد اخفتنا ، فماذا

تعرف عني ؟

قال جبور :

جويل الناصوري دكتورة في الاقتصاد السياسي . خريجة موسكو ، يسارية أحبت رجلا من غير دينها ، هو (مهيار الأسعد) وتزوجا ، عملا مع انطون شركس في صحيفته (انبلاج الفجر) ، وكان مهيار جريئا ووطنيا يقول الحق غير حياب . وقد وضعت في سيارته قنبلة ، أودت بحياته لأنه تجاوز الخطوط الحمر . وقد اتيت مع ياسر لمساعدته في العثور على ولديه . بعد تشكيل تلك الفضائية .

قال أبو أرز :

لقد نطقت بالحقيقة يا معلم ، ولكن هل تستطيع ان تفصح

بمعلومات عن سيرتي الذاتية ؟

نعم يا أبا أرز . فأنت رجل طيب تحب عملك وتكرس كل وقتك للخير . لقد شغلك عملك عن زوجتك فأحبت غيرك ، وكان ذلك مأساة حياتك . وقد أعجبت بالحزب الحاكم في العراق ، وبرئيسه وجاهرت بالقول في هذا حتى طردت من عملك . لأن الحزب الحاكم في العراق مكروه في لبنان. ولأن قوات الردع السورية هي المسيطرة نفهم سبب هذا الكره . فاشتغلت سائقا وبأعمال أخرى أنت تعرفها إنني أرحب بك يا أبا أرز فأنت رجل شريف . إننا نحبك كما أحببتنا .

ومستعدون للمساعدة في كل الأوقات ، وفي مختلف المناحي ثم ضحك وقال :
(سنزوجك بعراقية فالعراقيات جميلات فتعوض ما ضاع من أيامك .

جامله الجميع بابتسامة .

قال ياسر بلهجة فيها شيء من الحدة ، أو شيء من التحدي :

جبور القناقي ... من أنت ؟

من حقكم جميعا أن تعلموا : من أنا بعد أن عرفت عن حياتكم وخصوصياتكم ، أنا ضابط مخابرات سابق في الجيش العراقي الذي حله بريمر . وقد وصلت المعلومات دقيقة ، تخص القيادة العليا بحكم عملي . كنت في بعض الأحيان صاحب موقف . ولم يعجبهم هذا ...

فحولوني للعمل السياسي ، لكنهم وثقوا بي أيضا ، لأني كنت نظيف اليد . لقد أخرجت الكثير من أموال العراق إلى مكان آمن ، ليستفيد منه الشرفاء في مقاومة الاحتلال ، وأنا الآن انسق ما بين المقاومين الشرفاء ، وامدهم بالذخيرة والسلاح ، ومساعدي الآن يضع صناديق الذخيرة ، ويغمرها بالتين ، وكذلك بعض أنواع الصواريخ الخفيفة . وقد أتينا بالثور في شاحنتنا من أجل التمويه ، وتضليل العدو الذي ويا للأسف يستخدم بعض العراقيين، ويوظفهم كجواسيس . وقد علمت بأمر البعثة منذ انطلاقها من لبنان . وتابعت اخبارها في دير الزور، وكان يعامل الفندق الذي يقدم الشاي أحد عملائنا . لقد كأنت المخابرات العراقية باعتراف الغرب، وباعتراف الأمريكان من أقوى المخابرات في العالم. وقد أحاطت نفسها بستار حديدي صعب اختراقه ولا أقول استحال ، فالمخابرات الأمريكية استطاعت الدخول إلى

اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفييتي ، وغيرت مسيرته دون حرب أو انقلاب دموي . المشكلة في العراق أن القرار كان لفرد . وكان الفرد يخطئ أحياناً ويصيب أحياناً أخرى. لكن أخطاءه في بعض الأحيان ، كأنت جسيمة وبدرجة غير معقولة . والخطأ الجسيم يعادل الخطأ العمد ، ولو كان صاحبه لا يقصده . لماذا ذلك يحدث " لو كأنت حوله بطانة خيرة قوية، لمنعته من التمادي في الخطأ . كانوا يصفقون له في كل صغيرة وكبيرة ، صدق أم لم يصدق ، ويعلمون أنه قد أخطأ لكنهم يصفقون ، لأنه هو يحب المصفقين . ولا يحب الناصحين . أو الذين يبينون له خطأ رايه ، فإذا قال لهم أن اللبن

أسود، صفقوا له وقالوا صدقت. إن مثل هذه البطانة تدمر الحكم والحاكم ، ولا تثبت له ملكا . وبالنتيجة تقضي على الدكتاتور نفسه . لأن الإشارة إلى الخطأ تصحيح ، أو بداية التصحيح ، ونقد التصرفات ، وبعض الأفكار نقداً إيجابيا ، هو من البناء في كل شيء. وليس من الهدم في شيء . لكن السلطة تبعث على الغرور ، وكان أجدادنا يقولون : (رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي). وكأنت رعية الحاكم يومها من القوة والثقة

لتجاوبه : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا) لكن الماضي شيء والواقع شيء آخر. المهم الآن أن علينا هدفا عظيما وشريفا هو مقاومة الاحتلال ، وإخراج المحتلين .

قال ياسر :

اليس من أهدافكم إرجاع صدام إلى السلطة ؟

القائد يذهب ، والوطن يبقى . وصدام جاء في ظرف معين ، أوصله إلى ما أوصله إليه . وكما قلت سابقا فقد ارتكب أخطاء جسيمة مرت على العراق كوارث مثل الحرب مع إيران . التي قيل إنها ستصدر ثورتها ، وستلاقي ممن يتبعون مذهبها الترحيب الكبير. وأثبت الشيعة العرب، أنهم وطنيون بامتياز : حاربوا كعراقيين شرفاء ، وثلث الجيش العراقي كان منهم. وكان منهم القادة أيضا ونواب الرئيس . والحزب الذي حكم العراق فيما مضى ثلثه منهم . لم نتعود يوما على التكلم باللغة الطائفية . والبطاقة الشخصية لا تحوي مذهب حاملها . لكن الآن تسخر جهات خارجية ، أو إقليمية لها

مشاريع توسعية ، العزف على الوتر المذهبي . من أجل هذا مات في هذه الحرب أكثر من مليون شخص، لكن من كان المستفيد ؟ لاشك بأنها معامل الأسلحة الغربية ، وقد باعت ذخيرتها القديمة الكاسدة أو الفاسدة ، وبنهايتها حاول صدام قبض المكافأة من دول كأنت قد دفعته لتلك الحرب . فماذا كأنت مكافأته ؟ لقد أشاحوا بوجوههم عنه ، بل وحاربوه اقتصاديا . أنزلوا أسعار النفط بشكل هائل . وكان العراق بحاجة إلى المال بعد الحرب والتدمير ، وإنهاك الاقتصاد .

وحاول أن يستوفي حقه بيده ، فاستشار السفيرة الأمريكية التي ورطته ، وأغرته بغزو الكويت وادعت بأنها ستقف على الحياد ، إن قام هو بالحرب . كان فخا مدروسا ، وارتكب خطأ جسيما يومها .

وجرى الذي جرى. وقامت عاصفة الصحراء، وانقلب الصديق إلى عدو وجوصر العراق فطحنا نوى التمر وخبزناه ، بدل الطحين والقمح ، وعاني العراقيون ما عانوا ، لكن أخطاء الحاكم شيء ، والاحتلال شيء آخر، كأنت ذريعة الغرب في تسويغ احتلال العراق .

ادعاؤهم أن نظام صدام يتعاون مع القاعدة . وأنه يأوي من فجر برج التجارة العالمي ، وأنه يملك أسلحة التدمير الشامل . وعليه أن يرضى بمفتشين إن أراد أن يسلم .
وأرسلوا المفتشين الذين بمعظمهم كانوا جواسيس يأخذون سمت الأهداف ، ويرصدون المواقع من أجل ضربها مستقبلا، وجاء الاحتلال الذي تعرفون تفاصيله.

قال أبو أرز :

- لماذا انهزم الجيش العراقي بسرعة ، وقال، قلت إنه سادس جيش

في العالم ؟

لقد حدثت خيانة . لكن لا يعني ذلك أن الجيش العراقي لم يقاوم ، ففي معركة المطار الأولى قتل الكثير من الأمريكان . وقد فوجئوا بمقاومة ضارية ، أما في معركة المطار الثانية فقد استخدم الأمريكان الغازات واليورانيوم المنضب ، وأسلحة تستخدم لأول مرة تجعل الإنسان يذوب في مكانه ، كما يذوب الجديد تحت النار الحامية .

ولم تعرف ماهية تلك الأسلحة إلى الآن . وبقي ذلك من الأسرار، لكن الخيانة التي حدثت تمثلت بأفراد من الجيش متعاونين مع الاحتلال لبسوا الزي المدني ، ودخلوا إلى وحداتهم الدين : لقد انهزم جيشنا ودخل الأمريكان بغداد. وعلى كل فرد من الجيش أن يلقي سلاحه وذخيرته، ويلبس اللباس المدني. ويغادر إلى المدن والقرى التي يوجد فيها أهله، وإلا سيعدم هو وأسرته. وحدث هذا تقريبا في مختلف وحدت الجيش . وصدق كثيرون هذه الخدمية ، لكن المقاومة الآن قوية ، والأمريكان قد وقعوا في المستنقع.

نظر إلى ساعته وقال :

من فضلك يا أبا أرز خذ مني مفتاح قبو النبيذ ، ودع معاوني يخرج بالشاحنة . ثم اقفل الباب وعد . ولا تنس أن تدعوه للفطور معنا .

فرح أبو أرز لحصوله على تلك الثقة ، فقال :

حاضر معلم . وتناول المفتاح وذهب ..

عندما وصل أبو أرز إلى باب مستودع النبيذ اصاخ لسمع فلم يسمع أدنى صوت . فتح الباب ودخل كان للباب صرير كباب قلعة صدى . المستودع كبير جداً ، والشاحنة محملة بالتين ولم يجد بقربها أحداً . أين اختفى مساعد القناقي ؟ أزال التبن عن طرف الشاحنة فرأى ذخيرة في صناديق ، فغطاها بالتين ثانية. مشى في المستودع . كأنت أعداداً هائلة من براميل خشبية معدة لتخزين النبيذ ، كلها محكمة الإغلاق، وبصعوبة فتح برميلا كان البرميل مملوءاً بالذخيرة . لم يشم أية رائحة لنبيذ . ولم يكن المكان رطبا .

فتوغل أبو أرز عميقا في القبو فوجد سردابا ولم يعثر على مساعد القناقي حتى الآن، فاستمر في التوغل بالسرداب . مشى عشرات الأمتار . في نهايته لمح بصيص ضوء فاتجه نحو الضوء ، وكأنت هنا أرض السرداب صاعدة، ثم وجد نفسه يخرج للضوء .. كان قد أتعبه الظلام ، لما رأى النور وضع يده على عينيه . وتشمم هواء له رائحة العشب الطازج . كان قريبا من شاطئ بحيرة يرفدها نهر . وفي وسط البحيرة زورق يتهادى . ورجل يسبح ويستحم . عرف انه مساعد القناقي . يأخذ حمامه بعد أن فرغ من عمله ، وتأخر عليه معلمه

فهم أبو أرز الموقف تماما . وعرف أن مكان الكنيسة آمن ومدروس وانه مقر جيد للمقاومة العراقية عاد أدراجه دون أن يلفت أنتباه أحد وصل إلى مكان تجمع رفاقه

فقال :

لم أجد معاونك .

ربما هو نائم في زاوية مظلمة من القبو ، فقد كان تعبا ولم يتم البارحة . ولكنك يا أبا أرز قد استغرقت وقتا طويلا حتى عدت !

استرحت في القبو ، وشربت بعض النبيذ .

نظر إليه القناقي ، وهل وجدت نبيذاً حقا ؟ أتراك فتحت

البراميل ؟

لا إني أهزر ، فأنا لم المس شيئا .

اعلم يا أبا أرز اننا هنا لا نحب الهزر ، لذلك كن جديا معنا ، أما عندما تعود إلى بيروت فأنت حر .

لم ينبس ابو أرز بأية كلمة ، وندم على ما أبدى أن القناقي حازم حين يقتضي الحزم ، ودبلوماسي حين يلزم الأمر .

قال ياسر :

هل بإمكاننا أن نغادر الآن إلى المنطقة الخضراء ؟

بعد أن أغادر أنا ومساعدي بساعتين تستطيعون التحرك .

أفضل أن تغادر في صباح الغد .

هو أفضل إن انتظرتم للغد .

اخذ المفتاح من أبي أرز، وانسحب لينام ساعة من زمن . أما أبو أرز فلم يستطع إخفاء الأمر عن جويل وياسر ، فتوجه نحوهما قائلا :

هل نتمشى قليلا تحت أشجار النخيل ؟

فهمت جويل أن أمراً ما سيدلي به ابو أرز فقالت:

أنا أحب أيضا أن اتمشى قليلا .

وسارا خطوات بعيداً عن المجلس ، فأسر إليهما قائلا :

لقد اكتشفت سرآ في قبو النبيذ .

ما هو ؟

حدثهما بالقصة من أولها إلى آخرها .

قال ياسر :

لنذهب إلى حيث يستحم مساعد القناني ، ونشاهد مدخل قبو النبيذ السري .

ومازالوا يسيرون ، حتى وجدوا القارب مربوطا إلى شعيرة بعيداً عن المخرج السري للقبو ، ثم عثروا على الفتحة ، وقد وضع عليها اغصان يابسة وموهت .

ولما عادوا ، وجدوا القناقي مع مساعدة قرب باب القبو ، وقد أخرجا الشاحنة المليئة بالتين وقد شدرت بقماش من قند، سميك .

وقد عاد القناقي للباسه الفلاحي القديم ، فبدا شخصا آخر .

قال القناقي سنغادر الآن . فقد حدث ما يستوجب المصادرة.

على بركة الله . كان الله معكما .

عادوا للكنيسة ، كان الأب أنطون منزعجا . قالت جويل :

أراك يا أبأنا حزينا ومنزعجاً

جاءت أنباء مزعجة ، استدعت ذهاب جبور ومساعده .

ما هذه الأنباء ؟

استشهد صديق لنا عزيز ، أثناء اشتباك ، والمقاومون بحاجة للذخيرة .

هل ترى أن تغادر اليوم ؟

- ابقوا للغد . واليوم اسبحوا في النهر .

(٦)

تحركت البعثة التلفزيونية ، باتجاه المنطقة الخضراء في بغداد. وكان ترتيب المسير على الشكل التالي : في المقدمة الدراجة النارية ، ويقودها هواش. تليها سيارة (الرانج) ، ويقودها أبو الحارث ، وآخر الرتل سيارة الفنيين، وقبلهما سيارة جويل وياسر . واعطى أبو الحارث تعليمات المسير ، وكرر ما قاله عند خروجهم من دير الزور . كان الأب أنطون حزينا عندما ودعهم ، داعيا لهم جميعا بالسلامة ، وكان ياسر أقل قلقا ، بعدما سمع من القناقي التطمينات . أما جويل فقد تحركت في داخلها مياه راكدة ، وبدأت العواطف تسخن ، ولكن تحت نار خفيفة هادئة . وقال الأب أنطون :

عندما يجد أحدكم فراغا ، فالدير بيت ابيه وامه وسيجد عندنا الصدر الرحب ، والمكان الأمن .

وبعد مسير ساعة ، أشار أبو الحارث لهم بالتوقف قائلا :

اصبحنا على مشارف بغداد . سيذهب ياسر و جويل ، وابو أرز والفنيين فيدخلا المنطقة الخضراء . لأن البث سيكون تحت إشراف قوات الاحتلال . ولن يسمحوا لي ولا المرافقي بالدخول . حسب الأوراق التي حصل عليها انطون شركس من السفارة الأمريكية في بيروت . وأنا ومعي هواش ، مع سيارة (الرانج) والدراجة النارية ، سنذهب إلى حي الرشيد في بغداد . فهناك منزل خالتي بديعة وهي لم تغادر .

سننزل عندها ونبقى على اتصال ، وابنة خالتي سعاد ستكون عوناً لنا فيما سيأتي من ايام ، فسعاد هذه كأنت تعمل مصورة في تلفزيون بغداد الحكومي . و قد سرحت من وظيفتها بعدما الغي الاحتلال المحطة ، وما تزال عندها (كاميرا تصوير وخبرة ممتازة في عمل الفيديوهات . هي أيضا إعلامية ناجحة ، واشتغلت لفترة في (استوديو) الأخبار. تعشق الشعر والرواية ، والكتب الفكرية ، وكتب علم النفس ، وسوف تزودكم بالفيديوهات اللازمة ، لتبث من خلال محطتكم . سننسق معها العمل . وسنصور الأحداث وننقل الأخبار حية من خلال معارك ستشهدها على الأرض وفي ذلك خدمة محطتكم وللمقاومين أيضا ، فمحطات البث لا تأتي بأخبار ميدانية حقيقية ، أو طازجة لأن عناصرها لا يستطيعون النزول إلى أرض الميدان خشية الموت ، أما نحن فقد أصبح الموت لنا عادة . لذلك فإن سعاد ستقدم لنا مادة للسبق الصحفي، وخدمة للمجاهدين بإيصال صوتهم ، ونشاطهم إلى كافة أنحاء المعمورة . فتتميز محطتنا عن بقية المحطات .

قال ياسر :

هذه فكرة ممتازة ، لماذا لم تخبرنا بها من قبل؟

قال أبو الحارث :

السلامة . لم يخطر في بالي هذا الأمر من قبل ، سنفترق الآن رافقتكم

استمرت البعثة في التقدم نحو المنطقة الخضراء واستوقفتهم حواجز للجيش الأمريكي، فأبرزوا الأوراق التي زودهم بها أنطون شركس ، من السفارة الأمريكية ببيروت ، فسمحوا لهم بالتقدم حتى وصلوا إلى قاعات البث . هناك استقبلهم مسؤول من جيش الاحتلال .

يرتدي الزي المدني . تفحص العربات والأجهزة ، ودقق في الأوراق . ثم أدخلهم القاعات البث المخصصة للفضائيات . هناك وجدوا من أعطاهم مكاتب للبعثة بكامل أفرادها ، تتألف المكاتب من غرفتين للبث . وثلاث غرف للإقامة مفروشة بأسرة وخزن صغيرة ، وبعض الأدوات الأخرى ، مع منافع ومطبخ . فأنزلوا امتعتهم وأجهزتهم من السيارات . وركب الفنيون الأجهزة في غرفتين مجاورتين ، يفصل بينهما جدار له باب . وصار هذا المكان استديو البث أو المقابلات

والغرف الثلاث الباقية : اخذ ياسر منها غرفة مكانا لنومه ، ومكتبا ايضا ، لأنها مزودة بطاولة وكرسيين. والغرفة المجاورة ، كأنت من نصيب جويل فيها خزانة صغيرة أيضا ، وسرير مفرد وطاولة وكرسيان .

أما الغرفة الثالثة فكأنت الأكبر، وفيها ثلاثة أسرة، مع خزانة كبيرة ، وأخذها أبو أرز والفنيان الاثنان .

الآن بدأ عمل الفنيين ، وعليهما عبء كبير في تشغيل المحطة وإدارتها ، وأما ياسر وجويل فعليهما عب تنسيق الأخبار ، وبث

الفيديوهات ومراقبتها، وإدارة عمل البعثة ، وفيما بعد ... الاتصال بأبي الحارث ومساعده ، والتنسيق معهما ، وربما مع سعاد أيضا التي ستلعب دوراً هاما في تنشيط عمل البعثة .

وابتدأ البث التجريبي ، ثم جرى تنسيق مع وكالات الأنباء العالمية العاملة على الأرض ومراسليها ، وتم إخبار انطون شركس ببعض التفاصيل. وقد شاهد من بيروت ، محطته الفرعية في بغداد وقد أقلعت . ففرح بعدما علم أن البعثة بخير .

وأما بالنسبة لأبي الحارث ومساعده ، فقد وصلا إلى حي الرشيد حيث تقطن خالته بديعة . وقد رحبت به بديعة عظيم الترحيب .

ولم تتوقع عودته العاجلة بهذه السرعة ، لأنها تعلم أن أسرته ربما استقرت في سوريا أو بدأ عملاً فيها... بعد العناق والسلام والترحيب .

قال :

سأحدثكم بالأمر كله مع تفاصيله . كيف عدت ولماذا ؟ وما الهمة الجديدة والأحداث التي غيرت الهدف. ولكنني أريد مكانا حرا مستقلا ، ليقيم فيه مساعدي هواش ويبيت فيه ، إضافة إلى مكان دراجته .

رحبت الخالة بديعة بهواش ، وقالت :

بيتنا من طابقين : الطابق الأرضي عبارة عن (حوش) مستقل بأربع غرف وحديقة كبيرة ، وبابه كبير يمكن إدخال الدراجة منه إلى الدار، لا نستخدم (الحوش) منذ غادرنا المرحوم زوجي الدكتور

مرداس. وكما تعلم ، فقد كان عالم أبحاث كيميائي مشهور ، وله مكأنته الأكاديمية . قتلوه دون سبب ، فقط لكونه باحثا و عالما . والآن امثاله يتخفون تقية ، بغية النجاة بأرواحهم : منهم من يشتغل سائق سيارة أجرة للتمويه والعيش ، ومنهم من يعمل في مهن وضيعة، لتمويه صفتهم أيضا ، والنجاة بأرواحهم ، ومنهم من شجعهم وكلاء إيرانيون للعمل في مصانع إيرانية ، ونقلوهم إلى هناك ومنهم من أجبرهم الأمريكان للعمل معهم في أبحاث الذرة والفيزياء في واشطن أو نيويورك ، ومن لم يرض قتل على الفور . يقال أن كتيبة إسرائيلية موجودة الآن في العراق ، مهمتها تصفية العلماء واغتيالهم .

قال أبو الحارث :

إذن ادخل دراجتك يا هواش ، إلى الدور الأول في (الحوش) و

اختر الغرفة التي تناسبك .

قالت الخالة بديعة :

غرف الكتب والمؤلفات والألبسة والحوائج الخاصة المرداس ،

بقيت كما هي منذ اغتياله . غرفتان فقط بإمكان هواش استخدامهما

مع أرض الحوش و الحديقة .

نزل هواش إلى الطابق الأرضي ، وادخل الدراجة ، بينما بقيت السيارة (الرانج) في الخارج، في هذه اللحظة ظهرت ابنة خالته سعاد ،

خارجة من غرفتها ، وقد سمعت في الدار ضوضاء وجلبة ، وقدوم ضيف . فرات أبا الحارث ، فسلمت عليه بحرارة ، فقال :

لنجلس قليلا يا ابنة الخالة ، لأقص عليكما أسباب قدومي ، وما جرى معي أثناء المغادرة ، وأثناء العودة وسببها .

قص عليهما القصة كاملة . ثم قال :

تصادفني مشكلة مبيت سيارة الرانج) في الشارع ، وأخاف أن يسرقها اللصوص .

المشكلة بسيطة ، ثمة دكان كبيرة في در جارتنا ميسون ام سعدون ، أنت تعرفها اليس كذلك ؟ لقد هاجرت أيضا إلى الأردن مع عائلتها ، واعطتني مفتاح دارها ودكانها . وخواتني بإسكان من أريد فيها .

قال أبو الحارث :

- هذه مفاجأة عظيمة ، واخبار سارة فربما أسكنت في تلك الدار ابا أرز

ومن يكون أبو أرز هذا ؟

إنه أحد أفراد البعثة التلفزيونية ، وقد كان في الأمن اللبناني .

ثم عمل سائقا ، وقد تركته زوجه وهربت مع شخص عشقته .

تأثرت سعاد من كلام ابن خالتها ، وقالت :

هذه مأساة حقيقية . لقد حزنت من أجل الرجل دون أن أراد .

إنه جدير بالمساعدة والرأفة .

- سترينه كثيراً لأنك ستساعديننا . اقصد البعثة التلفزيونية اللبنانية . وقد أصبحت أنا فردا منها . ستساعديننا يا سعاد ، في تصوير الأحداث خارج المنطقة الخضراء . وربما نذهب أنا وأنت وأبو أرز وهواش ، إلى مواقع القتال الحقيقية ، ونصور على الطبيعة ما يجري ، فصدق الحدث هو ما يجري في حينه على الأرض ، ومقياس نجاح المحطة ما تبثه من اخبار طازجة في وقتها ، والأحسن من هذا كله أن يجري البث والمعارك ما تزال قائمة .

قالت سعاد :

يمكننا ذلك، وبأجهزة بسيطة متوفرة ، تركب على (الرانج) وتبث مباشرة إلى محطتكم في المنطقة الخضراء ، أو ننقلها بواسطة الفيديوهات . ومنها إلى بيروت حيث المركز الرئيس لتلك المحطة .

رائع جداً، الأمور تتيسر ، وسرعة الانجاز تتوفر . وأنت يا سعاد ، من الآن استعدي للعمل . فبعد أسبوع أو أكثر سنصور في ميدان القتال ، هل هذا ممكن ؟

- ممكن ... وإنني مستعدة لأكثر من ذلك : مستعدة للقتال ، والثأر لوالدي الذي قتلوه ظلما .

نزل أبو الحارث إلى الطابق الأرضي فوجد هواشا ، وقد أدخل دراجته ، وهو يعأين إحدى الغرفتين، فقال أبو الحارث الهواش :

حصلنا على دار إضافية، وفيها دكان سنضع فيها سيارة (الرانج) .

هل الدار خالية ، وتصلح للسكن ؟

تعود الدار إلى أم سعدون، جارة خالتي ، وقد هاجرت إلى الأردن مع من هاجر. وتركت مفتاح دارها ودكانها ، بعهدة خالتي بديعة ، وهي بكامل فرشها ومعداتها وادواتها ، وتصلح للسكن الفوري إنها لا تحتاج لشيء .

إذن سأسكنها أنا حتى أكون مستقلا ، فلا أزعج أحداً ، ولا تكون خالتك وابنتها مأسورتين من وجود غريب .

لك ما تريد وسأتي بمفتاح الدار ، لنعأينها معا ، ولتدخل سيارة (الرانج) إلى الدكان .

جاء بمفتاح الدار ، ومفتاح الدكان من عند خالته، وخرجا معا باتجاه دار ام سعدون . أدخل السيارة (الرائح إلى الدكان أولاً . دكان كبيرة وفارغة ، ثم فتحا باب الدار ودخلا ، كأنت أرضية ، ولها حديقة واسعة وفيها نباتات ، لأن أم سعدون كأنت قد أوصت جارتها ، بأن تسقي نباتات دارها ، فعندها في الحديقة نباتات عزيزة على قلبها ، و فيها أيضا نخلتان سامفتان كأنت داراً واسعة . لم ينلها دمار مع أن معظم بيوتات بغداد قد تضررت أو دمرت ، وتفقدا الغرف فكأنت جاهزة تماما للسكن . أعطى المفتاح لهواش ، وقال له :

من الآن هذه دارك . والسيارة والدراجة أصبحتا في مأمن .

هلم بنا إلى المقهى لنشرب الشاي ونستطلع الأخبار .

كان مقهى الرشيد مشهوراً ، وكان في أكثر الأحيان يغص بالرواد .

بعض الناس يتواعدون على اللقاء فيه ، فهو نقطة علام مشهورة ، إضافة إلى المشارب الجيدة التي تقدم . عيبه دخان النارجيلة ورائحة المعمل والتنباك المزعجة الضارة .

لما وصلا واستقرا على إحدى الطاولات ، قال أبو الحارث المرافقه

هواش .

ما رأيك ، أن نتصل بأبي أرز ، ليوافينا ونتفق معه ، على تلقط الأخبار من الميدان نفسه ، ومن قلب المعركة . فيكون المحطنهم سبق ؟

وأن نجعل إقامته في الدور السفلي من دار خالتي ، لتدربه سعاد على

التصوير هنا -

- فكرة لا بأس بها ، ولكن علينا أخذ الإذن من جويل وياسر .

فهو تحت إمرتهما ، وهذا هو الأصل في التعامل ، فلا يقال : إننا تجاوزناه ما ل

هذا كلام حق وفيه منطق ، وإلا كنا متجاوزين ومتعسفين في استخدام الحق .

ولس أبو الحارث الأزرار وأجرى المكالمات . فحصل على موافقة الجاميع. وما هي إلا بعض من الساعة مرت : حتى أقبل أبو أرز . لمحا من بعيد شبحه، ثم لاح لهما مقبلا ومسرعا باتجاه المقهى . عندها حدث ما لم يكن بالحسبان . إذ سمع دوي انفجار هائل على باب المقهى كانت سيارة مفخخة قد انفجرت وسط أناس ، قد تجمهروا عند بابها ، وكان أبو أرز يبتعد قليلا عن مكان الانفجار .

صاح ابو الحارث :

يا إلهي لقد راح ابو أرز مرقا في هذا الانفجار.

خرجا إلى مكان وقوع الانفجار ، فشاهدا الأشلاء مبعثرة ، والدماء تسيل كجدول ، بعض الناس المصابين يطلبون نجدة ويتألمون ، ويهرع رجال لنجدتهم . اتجها إلى حيث كان أبو أرز . فوجداه قد اصيب ايضا ، والدماء تسيل من أنحاء في جسده فحملاه بسيارة عابرة. واتجها به إلى بيت الخالة بديعة . كان خلال الطريق ينزف ، ويكتم الله . وقد امتلأت السيارة بدم كثير . قال أبو الحارث الهواش :

- أنت بالطبيب سريعا بعد إنزاله في بيت خالتي. بينما نعد له الإسعافات الأولية . انزلاه في الطابق الأرضي من بيت بديعة . وهرعت بديعة وابنتها سعاد لاستجلاء الأمر . فصاح بهما أبو الحارث أسرعا بالضماد والمطهرات بينما يصل الطبيب . وضعوه في سرير ، وربطا أمكنة في الأوردة والشرايين ، يتدفق منها الدم . دقائق قليلة وحضر الطبيب عبد الخالق. طبيب طوارئ مختص بتضميد الجراح ، ففحص ابا أرز ثم طهر جروحه ، واقتضى الأمر أن يمزق قميصه، ثم قام بالإسعافات الأولية اللازمة، مطهراً مواضع الجروح ثم ضمدها . وقال :

من حسن حظه أن جروحه سطحية . لكن عليكم أن تطهروا مواضع الجروح يوميا . وسأكشف عليه بعد ثلاثة أيام . اعذروني الآن، هناك مصابون كثر وعلي القيام بالواجب ، ثم غادر حاملا حقيبة الإسعاف ، بعد أن سطر وصفة الدواء .

كأنت سعاد تراقبه بعين ملؤها الإشفاق ، وقالوا له على التوالي :

الحمد لله على سلامتك يا أبا أرز ،

فقال أبو أرز بصوت كليل :

من قام بهذا العمل ؟

قال أبو الحارث :

- هي عصابات مجهولة الهوية غامضة الهدف . تدعي أنها تقوم بالجهاد، ولكن هل يكون الجهاد بتفجير السيارات ، وسط المدنيين ومرافقهم ؟ بعضهم يقول : إنها أنشئت من المحتلين ، وتأتمر بأمرهم ، لتسيء للمجاهدين الحقيقيين ، وبعضهم يقول : إنها بفعل عصابات طائفية ، لها مرجعيات خارجية، وغايتها الأنتقام ، وإشعال حرب أهلية ، وكل ذلك يخدم المحتل. وبعض آخر يقول : إنهم متزمتون جهلة ، لا يفهمون معنى الجهاد ، ويمارسونه على هذا الشكل البغيض . قال ابو أرز :

لابد أن أيد خارجية لها مصلحة في خلط الأوراق ، وإشاعة الفوضى ، وبالأمس فجروا مفخخة في مسجد الإمام علي التابع لمذهب معين ، وبعد دقائق فجروا أخرى ، في مسجد أبي حنيفة تابع لمذهب

آخر، وصدرت من سلطات الاحتلال، إشارات مغرضة وذات هدف شرير ، تقول : إن اقتتالاً طائفيا ومذهبيا يجري في العراق، إذن الأمر

مشبوه !

هو كذلك يا أبا أرز، وعلى كل حمدا لله على سلامتك ، ما كان لنا أن نطلب منك المجيء ، ونحن بشكل أو بآخر مسؤولون عما حدث .

لا.... أنتما ليس لكما ذنب ، وإنما الذنب كله على الاحتلال .

فهم مازالوا يتبعون سياسة فرق تسد .

قالت سعاد :

سآتيك بإبريق من عصير البرتقال ، والتفتت إلى أهلها قائلة .

هل يضره شرب السوائل .

اعتقد انه لا يضره، رغم أن شرب الماء للجريح قد يؤثر عليه اعتقد أن البرتقال سينعشه .

غادرتهم وبقوا حوله .

قال أبو الحارث :

كأنت الغاية من دعوتك للانضمام إلى جلستنا في المقهى ، هي البحث في كيفية التنسيق والعمل لجلب الأخبار من أرض المعركة . قابنة خالتي سعاد هي مصورة حاذقة ، وعندها (كاميرا) احتراف ، أما وان الذي وقع قد وقع ، فلنتريث بهذه المهمة، حتى شفاء جروحك قريبا بإذن الله. واعتبر هذه الفترة فترة راحة واستجمام وتثقيف ، ففي الغرفة المجاورة للمرحوم الدكتور مرداس زوج خالتي ، كتب

رائعة للتزود بالثقافة، وسترشدك سعاد إلى ذلك كما ستسهر عليك بالعناية، وتعقيم الجروح . فلها خبرة في التمريض واسعة ، وفي زرق الإبر أيضا بارعة. وعليك أن

تزرق بإبر تحوي دواء مضادا للالتهاب ساتي به إليك من الصيدلية حسب ما كتب الطبيب في وصفته .

قال هواش :

أعطني الورقة التي تحمل اسم المضاد، وسآتي به من الصيدلية المجاورة ، فأعطاه الوصفة وذهب .

احضرت سعاد عصير البرتقال ، وصبت لأبي أرز كأسا وناولته الكأس بيدها نظر إلى عينيها ... كأنت سوداء لامعة وبراقة . خيل إليه أنها زئبقية ، فتأمل ملامحها . كان جمالها صافيا أخاذاً . ربما هي في الثلاثين ، أو أقل بقليل . وجسمها متناسق منحوت ترتدي بنطال جينز أزرق ، وقميصا أبيض بنصف كم . بشرتها بيضاء ناصعة ، لكن شعرها أسود غزير مقصوص ومرتب ، ويصل حتى كتفيها ، وتدلت خصلة من الشعر من أعلى جبهتها حتى وصلت إلى طرف حاجبها الأيسر . أعجب بها من أول نظرة... وكأنت نساء بيروت على تبرجهن : لم تلفت واحدة منهن نظره كما الآن . فاجعة الخيانة التي حدثت

جمدت عواطفه . بل خلقت الازورار عن كل النساء إن لم نقل الكره . لكن الآن الوضع مختلف ، فسعاد هذه ملائكة هبطت إلى الأرض من

علياء .

اتصل أبو الحارث بجويل وياسر ، واخبرهما بالحادث مخففا من هول المسدمة قائلا :

الجروح بسيطة جدا ، وتكاد تكون خدوشا صغيرة ، أجرينا له العلاج اللازم ، لكنه سيبقى أياما وربما أسابيع في بيت خالتي ، بعناية ينالها من الجميع .

وافق ياسر وجويل . وقالا بأن أمور المحطة تسير على ما يرام .

ولم يكن دور أبي أرز محوريا في البث أو في تنسيق الأخبار ، وعلى كل

سيزورانه عندما تسمح الظروف بذلك .

جاء هواش ، ومعه الإبر والمطهر والأدوية ، التي وصفها الطبيب ،

فتلقفتها سعاد من يده ، وجهزت الدواء ووضعته في الإبرة . واستعدت التعقيم مكان الزرق . لكنها قبل ذلك قالت لأمها و لهواش و لأبي الحارث :

رجاء اصعدوا إلى الطابق العلوي، سأزرقه الإبرة ، وأدعه ينام

قليلا ، ليرتاح وسأوافيكم بعد ذلك .

خرجوا جميعا من الغرفة ، ولم يبق سواهما .

قالت له :

هل تخاف من الإبرة و با أرز ؟

قليلا ولكن لبس عندي عقدة من الزرق . لكن لي صديق شاربه نصف من مصاب (بفوبيا) زرق الإبر مع أنه في بيروت قد نال

أكثر من ضربة سكين لكنه يخاف من الإبرة الصغيرة .

ضحكت سعاد ، فازداد الضياء ولمع برق . فازدادت جمالاً على جمال . ففرفح قلبه كعصفور يطير في الهواء جزلا ويمتص من ثمرة

طربة ماء قلبته قليلاً على جنبه وعظمت مكان زرق الابرة . ثم غرستها في اللحم فندت عن أبي أرز شهقة خفيفة وسرى الدواء من الإبرة إلى الجسد الجريح ضحكت ، وقالت :

أنت أكثر شجاعة يا أبا أرز، من صاحب الشنب الطويل .

ضحك هو أيضا وقال :

- يبدوا إن هذه الإبرة تسقط أمامها شجاعة الشجعان .

سأتركك الآن لترتاح ، ففي هذا الدواء شيء من المسكن ، ستنام

بعد قليل ، إلى اللقاء

غادرت الغرفة ، وأغلقت عليه الباب ، ففرق أبو أرز في احلام .

وعادت إليه صور من أحداث المادي.

كان في الأمن اللبناني، يتمتع بمنصب مرموق. لقد أحب عمله وبرع فيه ، وكان له اصدقاء يحسدونه أحياناً وربما يتمنون خروجه من السلك ، ليجلسوا على كرسيه . أحدهم في يوم ما دبج فيه تقريراً كاذبا يقطر سما رعافا، واتهمه بما ليس فيه . التهمة السياسية في العالم الثالث ، القرب طريق إلى السجن ، أو حتى حبل المشنقة ، كل متهم مدان حتى تثبت براءته، يا للمفاهيم الحضارية المعكوسة ! ولن تثبت البراءة ، لأن البحث مضن أو شاق أو غير مفيد، ولأن التهمة من عنصر موثوق ، فهي وليدة الافتراء والدس، وأسهل الحليل ، إنهاء خدمته وتسريحه فسرح .

في العالم المتحضر كل متهم بريء حتى تثبت إدانته . فالاتهام قد يكون زورا أو كيدا أو افتراء ، هناك يتحرون الحقيقة بكافة السبل .

ويحافظون على الإنسان الذي خدمهم وربوه ودربوه . تعبوا عليه. وانفقوا مال الحكومة ، فالدقة عندهم مطلوبة ... هنا التسريح سهل .

وأسهل من تدخين السيجارة على طاولة من بيده القرار، فادفع يا أبا أرز الثمن ، الذي لم تقترف جرما يسوغه.

سرح إذن أبو أرز ، ونتيجة ذلك : شقي وجاع وتجرع الذل والمرارة حتى الثمالة ، فعمل سائق أجرة من منصب رفيع في الأمن إلى سائق أجرة . زجاج القوه من عل فتشظى ، لكن أبا أرز كان من صوان فحافظ على صلابته ، رغم فداحة الظلم ، أما الخيانة التي فاجأته من زوجته التي أحبها ، فكأنت فاجعة الفواجع ، وقد كره يومها المرأة . ولكن ما ذنب النساء الجميلات المخلصات ؟ وها هي سعاد اليوم ، تبرز

أمامه كفجر أذن بالانبلاج . ويبدو انه سيتبين لديه الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وأن حب الحياة سيعود ... ما أغرب الأقدار ! بل ما اقساها ، الأصح ما ارحمها ! أمن الممكن أن تنبت زهرة اوركيدا في الجحيم ؟ بل هل يمكن أن تكون الجراح ، التي

سببتها سيارة مفخخة مدخلا إلى حياة النعيم ؟ ما أروع تلك العينين السوداوين الرائعتين ! وما أعذب تلك البسمة التي نزلت مطرا رحيما ! فتذكر امه ، أليست امه من النساء ؟ فلماذا يغضب ؟ بل لماذا يكره المرأة ؟ إن الحنان الحقيقي ، لا يوجد إلا عند المرأة ، منذ رضعة الثدي الأولى ، حتى لمسة الحنان الأخيرة عند المغادرة. هل يعقل أن يتبدل أبو أرز هذه السرعة وتلك السهولة، غيرته فتاة المت بها مأساة ، فتاة رزاتها الأقدار بأبيها الدكتور مرداس ، الذين جاؤوا من خلف البحار اغتالوه كم هو خطير ؛ وكم هم ضعفاء، لا ذنب له إلا أنه باحث وأكاديمي ، وعنده مركز ابحاث واختراع . كم يخافون من العلماء والباحثين ! من خلف البحار أتوا لاغتياله ، ولم يقدروا - برحمة أو أدنى شفقة . أنه سيترك اسرة يتيمة دون عائل . لماذا يخافون العلماء والباحثين ؟ ويهدمون المفاعلات قبل إنشائها ! ومجرد وضع حجر على حجر بنية إقامتها ، تأتي طائرة مغيرة فتدمر الأحجار . هم لم يتفوقوا إلا بالاختراعات والأبحاث فحازوها وحرموها على غيرهم . ويا ليت كأنت اختراعاتهم و أبحاثهم في سبيل رقي الإنسان وحضارته المدنية . بمعظمها كأنت اختراع آلات جهنمية : غواصات وحاملات طائرات ، وصواريخ عابرة للقارات ، ويورانيوم منضب وغير منضب اخطر تحمله صواريخ تفتك بالإنسان . بل بالحجر والشجر . وتترك آثارها حتى على الأجيال القادمة ، وسينشأ في العراق جيل مشوه ، وربما نخيل مشوه .

ومياه ملوثة وتربة ملوثة بالإشعاع الذي يبقى في الأرض ملايين السنين أهذه الحضارة التي يزعمون أنهم يحملونها ؟ وهل هذه رسالة إنسانية للحرية الزائفة التي بها يبشرون ؟ وهل تمثال الحرية الناهض على المحيط يرمز حقا إلى الحرية ؟ أم إلى شيء آخر ؟ إنه يرمز إلى كسر إرادة الشعوب وإذلالها وإفقارها وتيتيم أطفالها . ولكن الظلم لن يدوم ..

لقد ذهبت يا مرداس ، كما ذهب آلاف العلماء العراقيين ، لكنك يا مرداس ، تركت ذرية صالحة زرعتها في أرض العراق ، إن سعاد التي تركت ستخلف ايضا ذرية صالحة ، منها الباحثون والأكاديميون و أصحاب مراكز الأبحاث والحكماء ..

غلبه النعاس فنام .

(٧)

بقي أبو أرز طريح الفراش أسابيع طويلة حتى برئ . كأنت سعاد أزوره كل يوم عدة مرات ، تنزل من الدور الأول ، تجالسه و يتحادثان، لقد فهمت مأساته وأحبته لصدقه وعفويته . ولحبه المعلن أيضا للعراق وأهله ، ووضعت في ذهنها خطة لتثقيفه وإعادة هيكلته ، بعد أن جرحته الصدمات والخيانة والغدر ، فقد رأته رجلا تنقصه بعض الثقافة النظرية .

سألته مرة :

هل كأنت لك في يوم ما هوايات ؟

في المدرسة كنت أهوى الشعر والمطالعة ، ولما دخلت السلك ، لم يعد لدي الوقت لكل هذا . سماع الشعر ما يزال يأسرني .

كأنت كل يوم تقريبا ، أو كل يومين تقدم له من مكتبة أبيها كتابا يقرؤه ويتفهمه ، وعند الانتهاء من فهمه وقراءته ، يتناقشان بموضوعه وأفكاره . تنقد له بعض أفكاره ، وتبين له الأوجه الإيجابية، أو السلبية فيه، ومدى الاستفادة منه في حياته . فليس علينا أن نتبنى وجهة نظر كل كتاب نقرؤه . لكن علينا أن نتفهم وجهة نظر الكاتب ، والكاتب إنسان والإنسان حر في أفكاره . تعلم الجدل والمنطق والنقد والتحليل ، ثم إعادة التركيب أحياناً بيوم واحد ينهي كتابا . وأحياناً يستغرق منه الكتاب يومين . أعظم وأكبر

كتاب بالكاد ثلاثة أيام كان يسرع في القراءة ، والفهم لأنه سيحظى بجلسة مناقشة معها . لقد أخذت بلبه و عواد لفه ، تتألق هي عندما تتكلم ، تشعر انك امام شخصية تؤمن بهدف . حرارة الكلام تنشط الجسد ، وتحلي الملامح . ولاسيما إذا كأنت الملامح بالأصل حلوة جميلة . عند سعاد الألق يزداد ويطغى .

في كل يوم كان يعجب بها أكثر وأكثر . لقد فتن بها وأنتهى الأمر .

كان شغفا متبادلاً في مرحلة لاحقة ، ترك الكتب وبدأ بدواوين الشعر

. قوة خفية شدته إلى الشعر . قال في نفسه :

) كان علي أن أكون شاعراً لا موظفا في الأمن)

في داخلنا سرداب ، تختبئ به عبقرياتنا وإبداعاتنا المضمرة .

فيه الرغبات الدفينة ، والنوايا الحقيقية للروح . أحياناً نقمعها وأحياناً أخرى أعداء النجاح . وما أكثرهم ! . . يمنعونها من الظهور . ما أكثر المحرمات التي تمنع شخصياتنا من التفتح والازدهار ليس سرداب الأب أنطون ، هو السرداب الوحيد . ربما كان رمزاً ، وكم من السراديب الداخلية علينا اكتشافها : بعضها مرضي . إن برننا منه تعافينا، فازددنا ثقة وحيوية . وسراديب أخرى فيها الموهبة والعبقرية كلؤلؤة في محارة ، مدفونة في الرمال . إن أتيحت لها الظروف ، خرجت متلألئة واستقرت على صدور الفيد. استخرج يا ابا أرز ، عبقريتك التي اكتشفت، ولتكن شاعرا سامقا يرفع لك القدح المجلى ، وتعتلي منابر المجد .

.... بعد مضي أكثر من شهر على الحادثة ، صار يتمشى في حديقة الدار مستندا إليها ، متوكنا على يدها أو كتفها ، وشعر بدف، ذراعيها واستدارة كتفيها، فامتلأ قلبه بالهيام والغرام ، وكأن الحب يغزوه لأول مرة ، فلم يكن سابقا لينعم بتلك اللذة الطاغية . ما أحلى الحب وما أروعه ! يأتي بغتة ودون مقدمات .

في الحديقة زهور حمراء جميلة. وزهور بيضاء بريئة وعصافير على الشجر تفرد ، كأنه يسمعها لأول مرة الآن ، لأول مرة في حياته على امتدادها الطويل . كان على بصره غشاوة ، وقد انقشعت ، ولم يعد هناك غبش ، بل صفاء ووضوح . والآن تأسره

الطبيعة بمنمنماتها ، وتفعل فيه فعل العواصف على رفتها ونعومتها - يلتفت إلى تلك التفاصيل الصغيرة ... هي صغيرة لكنها رائعة . لقد كان ميتا فحيي وعاش ، وكان مخدرا فعاد إليه الصحو وكان يابسا وخشبيا . فامتد إليه تسع الحياة و اخضر

في يوم ما قالت له :

ما رأيك أن أعلمك التصوير، واستخدام الـ (كاميرا) ، عندي (كاميرا) تحمل على الكتف ، (كاميرا) احترافية كنا نصور فيها مواقف ومقابلات ميدانية ، عندما كنت في تلفزيون بغداد . قد تحتاجها يوما لتصوير الأخبار ، و بنها في محطتكم .

عين الصواب ، فأنا منذ دخلت المحطة لأول مرة ثم خرجت ، أصبت وجرحت ورقدت عندكم في بيتكم العظيم ، ورفاقي يؤدون

واجبهم وقد نجحوا فيه ولم أعد أرى اخبار فضائية انطون شركس إلا من تلفزيونكم المثبت امام سريري ، فاتحسر لأني لم اشارك في صنع الإرسال ، أو جلب الأخبار، رغم حالة العطالة التي أعيشها أشعر كما لو أنتِ في أكاديمية قل نظيرها . أتعلم مالا تعلمه الأكاديميات . إنني اتعلم الحياة والحب .

وبمجرد أن وافق على فكرتها فرحت . ووضعت خطة لتدريبه على استثمار الآلة . دربته على التصوير بالـ (كاميرا) المحمولة .

وصورا معا فيديوهات تجريبية، ومقابلات وهمية في الحديقة و الصالة . فأصبح بعد أسابيع يتقن فن التصوير على الـ (كاميرا) المحمولة ، وكأنه محترف .

قال لها يوما :

- لم اكن أقرأ فيما مضى الكثير من الشعر . والآن تولعت بالشعر فأرهف إحساسي ، وصارت الحياة أجمل .

الشعر والرواية والثقافة والكتب الفكرية ، ضرورة لحياة الإنسان وخياله وإبداعه، وأنت يا أبا أرز، قد تغيرت تغيرا جذريا بتراكم الثقافة ، وجلسات الجدل والمناقشة التي كنا نجريها . أنت يا أبا أرز، إنسان فريد عظيم . لم تتح لك الظروف المواتية إظهار عبقريتك. ولا أخذت قسطك من الحب . فتقزم انفعالك ولم يتسع خيالك فظل مضمرا . كأنت العبقرية تثوي في أعماقك ، وجاء الظرف المواتي ، فظهرت إرهاصاتها. فيما مضى لجأت إلى التعويض السلبي .

بتزوير الهويات ، أو تهريب الناس عبر طرق جبلية أو غير مطروقة الإيصالهم إلى أهدافهم المشروعة . أما الآن فقد كملت ثقافتك ، وتغيرت للأفضل، فلتخرج عبقريتك الشعرية من الأعماق إلى النور .

هل بإمكاني أن أقرض الشعر ؟

الشعر تجربة شعورية . اكتب ما تشعر به ، وتأمل تفاصيل الحياة الرقيقة من طير أو زهر أو مطر، من شجر أو نسيم عليل ، او حب الأشياء افتقدتها .

بصراحة افتقدت الحب الحقيقي، وكنت أتوهمه ، واجد انني اليوم أشعر لأول مرة به . في البدء ارتحت إليك ، ثم أعجبت بثقافتك الواسعة ، ثم احببتك اخيرا . صارت حياتي بوجودك شغف دائم ، ففي الوقت الذي تجلسين فيه الآن بقربي ، أشعر في داخلي بخوف مغادرتك لي .

ضحكت وقالت :

ماذا تريدني أن أفعل ؟

أن تظلي بقربي طوال الحياة. وأن تحدثيني كل الساعات .

فحديثك يشحن روحي ويغمرني بالأمل .

قالت تشرح شعورها :

في البدء رثيت لحالك ، وتألمت لألك قبل أن أراك . لأني سمعت بقصتك من أبي الحارث . ولكن عندما جمعتنا الظروف ، أعجبت بك كرجل تمرد على مأساته . ولم يستكن أو يناقل إلى الأرض . بدأت بعمل متواضع بعد خروجك من السلك ، نجحت وساعدت الآخرين . لم تفقد الأمل ، لكن الهدف كان عندك غائما، وأصابك شيء من يأس واحباط . خيانة مزدوجة المت بك بغدر وخسة . لكنك لم تنهر أو تكفر بالحياة .

كنت تؤمن بالمثل التي تربيت عليها ، ومنذ دعاك ياسر إلى مرافقته في البعثة إلى العراق . وارضه جحيم حقيقي ، لم تتقاعس أو تتردد في الوقت الذي تردد فيه الآخرون، وتمنيت لو تقاتل المحتلين مع أهله، وجنت مضحيا ، لا من أجل مال ، ولكن من أجل مثل . ومن هنا مصدر قوتك وعظمة نفسك . أعجبت بك عندما اكتشفت هذا من خلال جلسات النقاش ، أو مداواة جروحك أكثر وأكثر، وعندما تعلمت بالشهور القليلة بفهم وذكاء والمعية، ما لا يتعلمه غيرك بسنين ، فاكتشفت فيك حب الحياة الكامن. وإمكانية التطور الخلاق وأنت مازال أمامك متسع من الحياة. فإلى الأمام يا أبا أرز

أنت الآن في الخمسين ، فكيف لرجل مثلي أن يكون له متسع .

- لا تظنن أن الكهولة ستتغلب عليك ، فلقد تغلبت أنت على مصاعب أكبر ، وما الخيانة التي تعرضت لها، وقمت منتصراً وكأنك

تقوم من بين الأموات، إلا دليل قوة في النفس والعزيمة لا تلين . كثيرون بدؤوا في الخمسين وأكثر ، فأبدعوا وحققوا المعجزات . أنجبوا نسلا صالحا ، وعمروا الأرض وحرثوها . بنوا وأشادوا ، وكأنت لهم مرتكزات ومنطلقات ، فنالوا إعجاب الآخرين . استمر يا أبا أرز ، في

نهوضك وبناء قوتك الذاتية ، فالإنسان لا ينتهي إلا بانهزام إرادته وخور عزيمته، وارى في عينيك يا أبا أرز، شموخ النسور، فالنسور تحتفظ بكبريائها وشموخها حتى وهي تحتضر . لقد أبليت البلاء الحسن ، وتطورت أعظم تطور ، فاكتب شعرا أو نشرا ، وعبر عما يجول في نفسك وخاطرك ، ولا الدفن مشاعرك ، وابحث دائما عن هدفك ، واسع اليه .

سأفعل ما تقولين، وستجدين كل ذلك من الغد متجليا في شعر مكتوب ، وسأكمل ديوان السياب الذي أعطيتني إياه ، قراءة وتمثلا وفهما .

سأدعك الآن لأفكارك ومشاعرك ، وأعود إليك وقت الغداء .

لتكمل النقاش .

صعدت إلى الدور العلوي ، أما هو فأخذ ورقا وقلما محاولاً كتابة

اول قصيدة ، مكتب :

من غابة الأرز ، اتيت إلى أرض النخيل .

احمل احزاني معي بدرب الجلجلة ....

كالصليب الثقيل .

أحمل أوزاري ، وكاهلي منقل بالجراح .

على جسم هزيل .

اخالني كنت ميتا ، او هيكلا يجرجر هما ؟

مترنحا كقصب الأنهار ، من شدة التيار.

تدفعه الأطيار من ثقل حملها .

مترنحا بجسم هزيل .

فمن تراه أيقظني من سباتي .

او دعاني من مماتي دون صلب .

وحملني حلما جميلا ووردا جميلا

وكان الجرحى طبيبا ... ولروحي حبيبا .

وكنت القتيل .

اتراه ريم ببغداد ؟ ام ظبية دجلة ؟

ام ظلال النخيل ؟

سعاد ، أنت السعد . أنت المنى .

وأنت دواء العليل .

فكيف الوصال يكون ؟ ولست أرضى بغير الحلول .

فروحك أحلى . وجسمك أغلى .

اتراني ذهبت بحلمي إلى المستحيل ؟

حينما دخلت إليه ، تدعوه للصعود، وتناول غدائه ، قالت :

أظن أنك كنت تكتب شيئا ؟

كتبت لك شعراً ، وقد أحببت الشعر من زمن ، ثم إنسانيه العمل ولقمة العيش ، وعلى يديك تعلمت ما كان ينقصني فتغيرت .

فهل يا ترى ، ما كتبت هو شعر ام اشبه بالشعر ؟

قالت :

اقرأ لي ما كتبت . المهم أنك مقتنع بما كتبت ، نبرة الشاعر تنبئ عن أصالته ، لتخرج الكلمات من القلب ، محملة بعبق الروح السامية.

وصار يقرا لها مترنما . غزا الفرح والدهشة محياها . أمن الممكن أن يكون ابو أرز شاعراً مضمراً وأين كأنت تكمن الموهبة فيه ؟ أحياناً تملك من المواهب في داخلنا ، الكثير ولا تعلم . نملك الإمكانيات الكبيرة ولا نثق ولما أنتهى ، قبلته في جبينه ، وقالت:

أنت يا أبا أرز، صاحب موهبة . لديك أحاسيس مرهفة ، فأين كنت تحبى كل تلك الأحاسيس ؟

فرح ابو أرز مما سمع ، وقال مازحا .

في صندوق سيارة الأجرة التي كنت أعمل عليها .

كأنت تلك تجربة اغنت شخصيتك . لا تسخر من عمل شريف . لقد شحنتك تلك المهنة بالتجارب ، ولولاها لما تعرفت بياسر الخوخة ، والشيخ حامد الأغبر الذي حدثتني عنه بإجلال ، والأهم لولاها ما كنا هنا الآن .

كلامك صحيح ، وأحلى من العسل . إنه إكسير للروح ، ونسمة

للحياة . هل يطمح إنسان مثلي بالتشرف بطلب الزواج منك ؟ ! ام ان

ذلك حلم بعيد .

ضحكت من قوله ، وقالت :

أنت يا ابا أرز ، تمتاز بالسرعة . وأنا مناك ، ولكن عندما يخرج المحتل من العراق ، سيكون ذلك. بيني وبينك فوارق .

في وجه الحب الصادق ، تزول الجبال .

سمعا على الباب طرقا ، كأنت جويل وياسر عائقاه مستفسرين عن صحته وأحواله ، ثم صعدوا جميعا للطابق العلوي لتناول الغداء .

(٨)

جاء أبو الحارث إلى بيت حالته بديعة عصراً . فتحت له سعاد

الباب ، قال :

اريد ان اجتمع بأبي أرز بحضورك ، فهناك مهمة جديدة لكما .

إن أبا أرز قد برئ تماماً ، وهو يتوق للعمل خارجا ، ويريد أن يقدم نفعا للبعثة ، بعد أن توقف بسبب إصابته شهوراً ، وعرفت هذا من اتصالاته المستمرة بي ، أو من كلامه لجويل وياسر: يطلب منهما تكليفه بعمل . وعلمت منك أيضا أنك راغبة في المساعدة .

قالت :

أين تريدنا أن نجتمع ، في الدور السفلي ؟

نعم في الدور السفلي، وفي أرض الحديقة لأنني أريد أن أشرحلكما العملية التي ستصوراتها، واشرح لكما على تراب الحوض تفاصيلها ، كما لو كان الحوض أرض معركة .

اجتمعوا في الحديقة ، بأرض محروثة كما رغب، قال أبو الحارث :

هناك عملية هامة ، سينفذها المجاهدون خلال يوم أو يومين .

وأنتما ستصوران وقائعها ، إنها كمين محكم ، غايته جر اصيل من قوات الاحتلال بمشاته وآلياته ، ثم تدميره بمنطقة تسمى : (منطقة القتل . لم يكن السعاد خبرة عسكرية . لكن أبا أرز فهم قليلا ما قصد

أبو الحارث :

قال ابو أرز :

شرح مثل هذا ، يتم في الأكاديميات العسكرية على صندوق رمل ، تمثل فيه تضاريس الأرض ، كما لو أنها على الطبيعة تماما ، أي تشبه المنطقة التي ستجري فيها العملية المرتقبة ، ويمثل فيه الصديق والعدو ، وأماكن توضع كل منهما .

قال أبو الحارث :

نعم الأمر كذلك ، اعتبر هذا الحوض الترابي صندوق رمل

الشرح العملية، سيكون وسيلة لتفهيمكما الدور الذي ستقومان به .

والأرض التي تتمركزان فيها، بحيث تستطيعان تصوير مجريات

المعركة.

أخرج أبو الحارث عدداً من علب الكبريت ووضعها في منتصف

الحوض ، قال :

هذه العلب تمثل بلدة (أم الزعانف ، وهي بلدة هجرها أهلها .

وبقيت مساكنها قائمة ، سنضع في إحدى البنايات المؤلفة من طوابق مجاهداً ، يحمل قناصة ورشاشا وقاذفا مضادا للدبابات .

قالت سعاد :

مجاهد واحد لوحده ؟ ولماذا كل هذه الأسلحة معه ؟ هل

سيستخدمها لوحده دفعة واحدة ؟

مجاهد واحد فقط لتقليل الخسائر، وهو سيتنقل ابن الطابق العلوي إلى الأوسط فالسفلي في كل طابق يستخدم سلاحا ليوهم العدو ، بكثرة المجاهدين في الطابق العلوي سيستخدم رشأنا ، ثم ينزل للطابق الثاني ، ليرمي من قاذفه مدرعة أو آلية ، أما القناصة فقد يستخدمها لقنص القادة المحتلين ، في أي طابق يشاء .

قال أبو أرز :

ما الغاية من هذا العنصر الوحيد أيضا ؟ يبدو أن له هدفا غير التدمير ، فلو كأنت الغاية تدمير العدو لزدت يا أبا الحارث عدد الرجال .

نعم له غاية وحيدة ، هي جلب القوة المحتلة إلى مكان القتل .

فهي ستتقدم باتجاه البلدة المهجورة ظانة أن فيها قوة مقاومة كبيرة ، وتقترب أكثر وأكثر لتدمير تلك القوة ، في هذه الأثناء يكون المقاومون الكثر، الذين سيدمرون القوة ، متوضعين في حفر برميلية مموهة .

قالت سعاد :

ما هذه الحفر البرميلية ؟ ولماذا سميت كذلك ؟

إنها حفر على شكل برميل ، عمقها بطول قامة الرجل .

يوضع فيها مقاوم واحد بسلاحه ، قد يكون رشاشا ، هذه الحفرة تحميه من القذائف والقنابل ، وعلى بعد عشرين مترا منه حفرة برميلية أخرى، يوضع فيها مقاوم يحمل قاذفا مضادا للدبابات

وهكذا تتوزع الحفر البرميلية ، لتحيط بمنطقة القتل إحاطة السوار بالمعصم

قال ابو أرز :

تقصد أن القوة المحتلة، ستجر من القناص بخدعة ، فتحاصر دون أن تدري لأن المقاومين يقبعون في حفر برميلية مموهة عندها يبدؤون بتدمير تلك القوة بإشارة معينة ، وذلك عندما تصبح القوة العادية في منطقة القتل

قال أبو الحارث :

هذا ما قصدت أن أشرحه لكما ، أنتما لن تشتركا في القتال.

سيكون موقعكما على مرتفع صغير خارج منطقة القتل إنه محيط بالمنطقة ، وسترصدان منه ما يجري ستكونان في حفرة برميلية واسعة تسع شخصين ، المجاهدون سيعدونها لكما وسيضعان فيها كرسيين من البلاستيك لأن إقامتكما في هذه

الحفرة ، قد تستمر أكثر من أربع وعشرين ساعة، وقد تكون أقل ، وعليكما إعداد طعام وشراب ، و (ترمسين من القهوة والشاي ، لكن التدخين ممنوع ضحك ابو أرز وقال :

أنا وسعاد كلأنا لا يدخن هذا جيد ، استعدا للسفر من هذه اللحظة سأمر و أخذكما عند الغيب ، فكونا جاهزين وجهزا للـ (كاميرا) أفلامها ولوازمها.

استعد أبو أرز وسعاد ، لأول مهمة سينفذانها، وهي مهمة صعبة وشاقة وخطرة ، وفي الوقت المحدد جاء أبو الحارث ، ومعه هواش نقلاهما بسيارة (الرانج) إلى مكان يبعد مسيرة نصف ساعة ، ثم أوقف أبو الحارث السيارة، وأوعر اليهم بالترجل ترجلا مع هواش ليمشوا مسافة خمسمئة متر في أرض وعرة، وهناك وجدوا مقاتلا

قال له هواش :

خذهما إلى مكانهما المحدد وافهمهما مجدداً مهمتهما ومؤه حفرتهما تابعا المسير مع المجاهد، وعاد هواش إلى سيارة (الرانج) التي بقي فيها أبو الحارث ومازالوا يسيرون حتى وصلوا إلى مكان ناهض مشرف على سهل

قال المجاهد .

هذه حفرتكما ، ستبقيان فيها حتى انتهاء المعارك سآتي أنا أو غيري لإعادتكما إلى أبي الحارث

نزلا إلى الحفرة ، بالكاد تسع اثنين مؤه المجاهد سطحها بأغصان شجر يابس وقال :

خدا حذركما ، وإياكما الظهور خارج الحفرة حظا سعيدا وعاد أدراجه

بدا أبو أرز متوتر قليلا ، لكنه قال في نفسه :

سأظل مع من عشقت زمنا ليس بالقصير، وحيدين متقاربين ملتصقين، وسنحقق إنجازاً للمحطة هاما ، ونقاء روحيا طويلا مع سعاد .)

أما هي فكأنت أقل منه قلقا ، بل ودت لو كأنت تحمل سلاحا .

لكانت قاتلت ثأراً لأبيها ، ودفاعا عن وطنها .

وصل العلم القوات الغازية خبرا دسه المجاهدون، مفاده أن المقاومين والثوار في بلدة أم الزعانف يحتشدون لهجوم ، فجمعوا قوة من مدرعات ومشاة بإمرة رائد في الجيش الأمريكي ، يدعى هانس مشهور بإجرامه وحبه لسفك الدماء، وتحركت القوة في الصباح باتجاه البلدة المذكورة، وشاهدها القناص المتمركز في أعلى البناء .

فتركها لتتقدم أكثر وأكثر، حتى اقتربت من منطقة القتل ، وأصبحت الحفر البرميلية خلفها وعن يمينها وعن شمائلها . هنا نزل القناص إلى الطابق الثاني ، ورمى بالقاذف المضاد للدروع مدرعة في قلبها جنود فأصابها مما اضطرهم إلى النزول منها والانتشار ، ثم بدأ القناص نفسه بالرمي عليهم بالرشاش ، فتابعوا مسيرهم باتجاهه ، وهم يطلقون النار . في هذه اللحظات كانوا قد أصبحوا في منطقة القتل تماما ، كما خطط المجاهدون ، فجهز الرماة في الحفر البرميلية قواذفهم ورشاشاتهم ، وبدؤوا بالرمي على تلك القوة التي أحيط بها . ففوجئ الأمريكيون وارتبكوا وأدركوا أنهم قد وقعوا في كمين محكم .

وكأنت مجزرة حقيقية للقوة المحتلة، التي نزل قائدها هانس من دبابته ، ليرفع من معنويات جنوده فتولاه القناص بطلقة في رأسه

فأرداه . ولما رأى الجنود قائدهم قد قتل ولوا الأدبار، ولكن أين لهم النجاة وهم مطوقون بإحكام. حاول معاونه رأب الصدع الكنه فشل .

ونزل القناص إلى القبو يحمي نفسه ، ويستعد للحاق بالمجاهدين ، لأن مهمته قد أنتهت عند هذا الحد، بينما بدأت القوة المجاهدة المتمركزة في الحفر البرميلية عملها برميهم دون كلل ، دمر الرتل بكامله وابيد عن بكرة أبيه ، وكأنت في هذه اللحظات (كاميرا) سعاد وابو أرز ، تعمل بكل دقة . وقد صورت المعركة كاملة .

لقد دب الحماس في المجاهدين، بعد أن علموا أن العام و قد دمر وابيد ، فخرجوا من حفرهم البرميلية، واستولوا على أسلحة العدو وجمعوها ، ووضعوا الأسلحة والغنائم في عربة همر ، كأنت ما تزال تعمل وهي تابعة للقوة المحتلة المهاجمة . ركبوا فيها ، وقادها أحد المجاهدين ، وخرجوا بها من المنطقة مسرعين . لم ينسوا القناص المتمركز في القبو ، الذي خرج وانضم إلى المجاهدين فان حبوا بسلام

أمنين إلى قواعدهم . كأنت العملية ناجحة بكل المقاييس بعد ساعة جاء طيران مروحي يستطلع المنطقة ، وخافت سعاد من اكتشاف امرهما ، لكن أبا أرز تابع التصوير وظلا في الحفرة ماكلين ، حتى انجلى الموقف وغادر الطيران.

قال لها :

لقد نجحت المهمة، وأنتهى دورنا ، فماذا تفعل ؟

نصبر ونتحدث ، حتى يأتي رجال أبي الحارث فيأخذوننا .

أمسك يدها وقبلها ، ارتعدت قليلا وشعر ببرودة أصابعها ، ثم قال:

إذا تمت الأمور كما احلم ، سنعيش في بيروت بأروع سعادة . واجمل حياة .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ...

لكنهم يقولون أيضا : تفاءلوا بالخير تجدوه .

لن أترك أمي وحيدة في بغداد .

سنأتي بها معنا إلى لبنان معززة ، سنبني أسرة وتنجب أولادا وسيكون عندنا نسلا صالحا .

إني أخاف المستقبل وقلبي منقبض .

صبت فنجانين من القهوة ، فتناول فنجانه . وما زالا يتحدثان حتى مر الوقت سريعا .

سمعا من بعيد هدير محرك سيارة ، لم يكن الوقت ليلا ، إنما أذنت الشمس بالمغيب ، عرفا أنها سيارة (الرانج) . نزل منها شخص واتجه باتجاههما، ولما وصل إلى مكانهما ناداهما فخرجا . عندها عرفا أنه المجاهد الذي عطاهما بالأغصان، ووعدهما بالعودة وها هو قد عاد . خرجا من الحفرة ومعهما الأمتعة والـ (كاميرا) ، وساروا في أرض وعرة حتى وصلوا لسيارة (الرانج) ، فوجدا فيها أبا الحارث الذي صافحهما وعائقهما ودعاهما إلى الركوب . ثم تحركوا إلى بيت الخالة بديعة . هناك نزلوا وأخرجوا الأشرطة واتصلوا بياسر ليأتي إليهم . فيأخذها ويبثها في محطته.

تعجب الجميع من شريط المعركة الحي وتساءلوا : (أين كان يربض ذلك المصور الفذ الجري الشجاع بين غابة من المدرعات والرشاشات والقواذف و انهمار الرصاص ، الأمريكان أيضا تعجبوا وقال قائدهم : (لابد من القبض على المصور والتنكيل به) .

ونقلت بقية الفضائيات عن فضائية انطون شركس الخير ، وأشارت إلى محطته ، فاشتهرت المحطة أكثر وأكثر ، وفرح انطون شركس وعلم أن الفضل يعود لجرأة أبي أرز ، ولد عمه من المجاهدين .

تتابع التصوير فيما بعد بالطريقة نفسها تقريبا في أكثر من معركة ، حتى قالت سعاد :

علينا شراء جهاز بسيط خفيف الحمل ، يلحق بالـ (كاميرا) للبث المباشر إلى المحطة في المنطقة الخضراء . جهاز فعال جداً رغم صغره . وينقل المعركة في حينها إلى الشاشة فوراً ، لكنه خطر لأنه معرض للاكتشاف .

واشترى ياسر الجهاز ، وقدمه لأبي أرز ومن هذا الجهاز وبواسطته تم نقل معارك بين المجاهدين وقوات الاحتلال حية وبوقتها . وتعجب المحتلون من هذه التكنولوجيا المتقدمة ، التي يمتلكها المجاهدون وجاؤوا براشدات ، تكتشف مكان البث لتكشف من يبث. وكان ذلك نقطة فاصلة في تاريخ أبي أرز ، بل فاجعة في حياته كلها ..

لكنه مع ذلك ، استمر في التصوير ، مما حقق للمحطة انجازات عظيمة .

اتصل جبور القناقي بأبي الحارث شاكرا جهوده، وجهود سعاد وأبي أرز ، لأنهما قدما للمقاومة فضلا وخدمة لا يقلان عن الجهاد بالسلاح ، ودعاية وإعلاما اهم من المعركة نفسها . واستطاع الناس أن يميزوا بين من يقاتل المحتل في أرض المعركة ، ويحقق الإنجازات بدحر المحتل وإنزال الخسائر به ، و بين من يدعون اجهاد ، بزرع السيارات المفخخة بين المدنيين في المقاهي و المساجد ، وبين نوع ثالث من التنظيمات الطائفية ، التي تدار من الخارج بالريموت كنترول . تنهب وتسرق وتغتصب وتضفي على نفسها صفة الجهاد أيضا كذبا وتزويرا.

قال القناقي :

اخبر يا أبا الحارث ، ياسرا وجويل ، أن يهبنا نفسيهما للسفر غداً إلى كنيسة الأب أنطون ، لألتقي بهما وعندي أخبار مفرحة .

لم يشأ جبور القناقي ، أن يذيع تلك الأخبار المفرحة ، لأبي الحارث ولم يسأله أبو الحارث عن تلك الأخبار ، و لكنه قال :

هل اذهب أنا أيضا إلى الكنيسة ؟

ليس من داع لحضورك، عليك التنسيق مع المجاهدين .

وتصوير مزيد من الفيديوهات لبنها حية إن أمكن .

و أخبر أبو الحارث ياسرا وجويل النبأ . وحاول ياسر أن يستفسر عن فحوى تلك الأخبار ، فلم يستطع أبو الحارث أن يفيده بشيء .

فخمن بينه و بين نفسه أن ذلك ربما يتعلق بولديه ، فالقناقي بخبرته

ومعرفته بمعظم كتائب المجاهدين ، قد يكون حصل على خبر مفرح،

واخير جويل بهواجسه فقالت :

إن ما تشعر به هو الحقيقة ، فأهم خبر هو العثور على مكان ولديك ثائر و كفاح .

ولم يستطع ياسر النوم في تلك الليلة . إنه قلق لكنه مستبشر ، ولما برغ الفجر ، جهز نفسه و ايقظ جويل .

قالت :

أراك استيقظت مبكرا !

لم أتم الليل بطوله حتى استيقظ ! ليت القناقي لمج بموضوع

البشارة .

بدقائق قليلة ، تجهزا للسفر صعدا إلى السيارة و اتعبها إلى بيت بديعة ، لأحد هواش كدليل . فرغم أنهما قد مرا بتلك الأماكن ، إلا أن هوأنا يستطيع تغيير الطرقات بسهولة ، إن لم تكن آمنة ، وهو يعرف الأمن من الخطر إضافة إلى أنه ابن المنطقة .

و لما وصلوا لبيت الخالة بديعة ، وكان أبو أرز يسكن في الطابق الأرضي من تلك الدار ، فتح لهما الباب . و فرح بلقائهما وقال :

جنتما مبكرين فلنشرب القهوة معا في هذه الحديقة .

نريد أخذ هواش معنا إلى الدير لأمر ضروري.

ليس قبل تناول الفطور .

سنتناول الفطور في دير الأب أنطون .

خرج ابو أرز لينادي هواشا ، وكأنت الدار التي يسكنها قريبة من دار بديعة ، وعاد ابو أرز وهواش بعد دقائق فشرح ياسر الهواش تفاصيل سفرتهم التي سينفذونها حالا، وأن عليه أن يكون دليلهم .

ثم خرجوا بعد أن ودعوا أبا أرز . كأنت سعاد ما تزال نائمة . و لما صحت كانوا قد غادروا . لقد لامت سعاد أبا أرز لأنه لم يوقظها ، لأنها كأنت تريد أن تشرح لهما وجها لوجه ، خطورة البث المباشر والاقتصار على الفيديوهات ، لكنهم قد غادروا

كان الأب أنطون مع مساعده في الدير وحدهما ، لكنه كان قد علم من جبور القناقي، بأن جويل و ياسر سوف يحضران في الصباح ، أما

هو فقد يتأخر لما بعد منتصف النهار، وحسب الظروف الأمنية وصل ياسر وجويل، ومعهما هواش إلى الدير في التاسعة صباحا .

الأشجار تلف المنطقة المنخفضة والرطوبة ، قبيل وصولهم للدير احسوا بطيفها . وصلت إلى وجوههم وأجسادهم . كان النخيل يضحك و الزيتون يهتز فرحا . ربما هكذا خيل لياسر . أوقفوا سيارتهم واتجهوا للكنيسة، كان الأب أنطون باستقبالهم مع مساعده عائقهم مرحبا ومباركا قدومهم . وادخلهم إلى قاعة الاستقبال وحادثهم .

سأل ياسر الأب انطون :

هل عندك فكرة يا أبأنا . عن سبب طلب جبور القناقي لقاءنا ؟ لقد قال ملمحا : إن عنده بشارة .

لا علم لي على الإطلاق ، سيأتي بنفسه ويخبرنا .

بعد برهة ، دعاهم إلى قاعة الطعام قائلا :

لقد علمت بقدومكم من القناقي البارحة ، أوعزت لمساعدي، بتجهيز فطور مميز ، نتناوله ببركة الله معكم . بارك لنا خبزنا وطعامنا يا يسوع، وجلسوا إلى المائدة ودار حديث عن إنجازات يقوم بها المجاهدون ، وعن دور فضائية أنطون شركس ، التي اشتهرت على مستوى العالم كله بسبقها الصحفي ، وصدقها ، وردها على كذب

فضائيات المحتلين وأعوانهم .

ولما أعلمهم الأب أنطون ، بأن القنافي سيصل متأخرا . وقد يكون عصراً ، وأن ساعات طويلة سيقضونها في ربوع الغابة و حول البحيرة.

فرح ياسر رغم استعجاله الخبر السار . لكن جويل قالت لياسر :

لقد بكرت أنت في المجيء ، وستضيع منا ساعات حتى يجيء القنافي.

بالعكس هذه الساعات الجميلة الرائعة ، سنضيفها إلى ذكرياتنا

الحلوة ، عندما قدمنا لأول مرة إلى هذا المكان الرائع .

ماذا تعني بقولك ؟

سنتمشى حتى تصل البحيرة ونفعل مثلما فعلنا عندما سبحنا.

ضحكت بغنج ! وقالت :

لن تنال مني قبلة هذه المرة .

سترى

و بعد استراحة قصيرة وحديث مع الأب أنطون قال ياسر :

سأتمشى أنا وجويل في أرض الدير، حتى نصل النهر والبحيرة

سأرافقكما إذا أردتما ذلك .

يسرنا وجودك معنا ، و لكننا لا نريد أن نتعبك، فالمسافات التي سنقطعها بعيدة ، وقد يرهقك المسير .

إذن نلتقي على الغداء بعد الظهر .

ودعاه و انطلقا ...

كأنت أرض الغابة معشوشبة ، وبين العشب الأخضر نبت الزهر الملون ، بمعظمه كان أبيض و أحياناً ليلكيا ، و من بعيد شاهدا ارتبا بريا يركض و أسرابا من العصافير ،

تغادر الشجر باتجاه البحيرة ولاحت لهما أسراب من طيور الكركي، تطرز السهل الأخضر البعيد . رغم الجحيم تستمر الحياة ، وما زالا يسيران حتى وصلا البحيرة .

كان الزورق مربوطا إلى شجرة والمنطقة هادئة تماما . جلسا قليلا باتجاه أمواه البحيرة المتغضنة ، بفعل ريح خفيفة ناعمة ، قال لها :

ما رأيك نذهب إلى فتحة قبو النبيذ، والدهليز المؤدي إليه .

اتعرف مكان فتحة السرداب ؟

أكاد اتذكر ، فقربها كأنت شجرة كينا وحيدة . لتحاول :

وذهبا إلى اليمين للبحث ، فلما وصلا شجرة الكينا الفرية ، قال :

اظن اننا على بعد أمتار قليلة من مدخل السرداب .

عثرا على كومة من الأغصان اليابسة ، فأزاحاها وو. بدا فوهة

الدهليز ، قال :

هذه هي الفتحة لنعبرها وندخل .

إني خائفة ، وليس من فائدة لنزولنا في السرداب .

ستلمسين الفائدة ، وتكتشفين الغاية .

وأنزلها قبله ، ثم تبعها وأعاد الأغصان فوق الفوهة كما كأنت .

نزلا في السرداب واستخدما مصباح إضاءة . كان المكان يوحي برهبة وخوف ، فالتصقت به ، وقالت :

لنعد !

امسكها من خصرها ، وجذبها إليه بقوة ، وفي الظلام ، اهتدى إلى شفتيها بسهولة ، وكأنت قبلة طويلة، لم تمانع ، ربما لأنها شعرت بحنان أبعد عنها الخوف ، فالتصقت به وتجاوبت بقبلة طويلة معه .

نبت لها جناحان فطارت الأفق تلوح من خلفه مدينة الرغبات المحرمة قطوفها من ثمار الجنان ، فلم تحرم ما أحل لهما ؟

كأنت أرض السرداب رطبة قليلا ، لكنهما شعرا وكأنها مفروشة بريش النعام . لأول مرة بعد سنين عجاف ، يشعر أنه عاد إلى الحياة . وأنه يرتشف الآن إكسيرا يحيي الأموات من رقادها ، فيخرجون من الأحداث بألق ليس له مثيل . كلاهما كان ميتا ، وهاهما الآن يعودان

إلى الحياة . ابتعدا إلى العمق ، وهناك طارحها الغرام على أرض مفروشة بالتين . بعد هدوء العاصفة التي هبت عليهما في السرداب ، قاما يتحسان ملابسهما على ضوء المصباح ، ثم تركته ورجعت قليلا للخلف ، وقالت :

لتعد إلى السطح، لقد ارتكبنا خطيئة مميتة !

بل قمنا بأروع عمل في حياتنا (كنا أمواتا في شرنقة ، فخرجنا وعشنا كالفراش .

لا أنكر روعة المتعة ! ولا أنكر السحر الذي عشته كحلم للحظات ، لقد تخلصت من عقدة ، لكن علينا الخروج من السرداب .

ليس قبل أن أرى مكان الأسلحة والذخيرة .

انصاعت ، فأوغلا في التقدم حتى وصلا لصناديق الأسلحة والذخيرة . لم يبق منها إلا القليل فسأل نفسه : (ماذا لو نفذت الذخيرة، فمن أين يحصل المجاهدون عليها ؟)

قالت له :

اراك مطرقا تفكر، بماذا تفكر ؟

ما بقي من الأسلحة والذخيرة قليل ! من أين يحصل المجاهدون على الأسلحة والذخيرة إن نفذت ؟

لا تخف عليهم سيتدبرون أمرهم دعنا نخرج .

وعادا أدراجهما ، وخرجا من السرداب ، وأعادا الأغصان مكانها ،

وتمشيا باتجاه القارب ، قال :

لنسبح قليلا .

لم اتوقع قبل مجيئنا ، أن يكون عندنا وقت للسباحة ، لذلك لم أرتدي ثياب السباحة .

كيف كان آدم وحواء يسبحان ، لنقلدهما .

ضحكت من قوله ، واردفت :

- يا لخيالك ! الخصب : أسبح وحدك لأتخيل حياتهما !

يا للخبث المكثف : تريدين أن تضحكي علي ؟

من حقي ذلك ، فأنت أيضا قد ضحكت علي في السرداب .

كان ذلك توقا أراده الرب ، وقد تلاقت الإرادتان في أجمل لحظة من العمر .

لتركب الزورق ونجدف قليلا إنها رياضة ممتعة .

وركبا الزورق وجدها ساعة من الزمن حتى تعبا. نظر إلى ساعته، كأنت الساعة الثانية ، قال :

لقد سرقنا الوقت .

معك يمضي الوقت بسرعة ضوئية .

عادا إلى الدير متأخرين قليلا ، فوجدا المنافي حاضرا . هجم ياسر على القنافي فرحا ، فعانقه والدموع تملا محجري عينيه ، ثم تقدمت جويل فسلمت بحرارة عليه .

قال الأب انطون :

هلموا جميعا إلى الغداء

قال ياسر :

هل لي أن أعرف الخبر السار الآن ؟

من حقك يا ياسر أن تعرف ، وأنا لم أقل شيئا في الهاتف احتياطاً للأمن ، لقد عثرنا على ولديك سالمين حيين يرزقان .

هجم ياسر على القناقي ، لائما خديه وجبهته ، ثم حاول تقبيل يديه ، فسحبهما القناقي، لم يكن ياسر متذل لأحد في حياته ! هذه هي المرة الأولى التي يشعر بفضل إنسان عليه . ومهما عمل أو تذلل .

فلن يعطيه المقابل . لذلك بدا كالعاجز المرتبك . نظر القناقي إلى ياسر فراه يبكي . تنزل دموعه كالمطر. لكن ملامحه ، تضحك بفرح قل نظيره .

قال القناقي :

إنهما يعملان على الشبكة العنكبوتية ، في قسم الإعلام عند جماعتنا المجاهدين، هما لم يحملا سلاحا ولم يقاتلا ، لقد جاهدا بعلمهما ، وساعدا المجاهدين في نشر الوقائع وتفنيد الافتراءات ودحضها ، على مواقع التواصل الاجتماعي ..

أين هما الآن بالضبط ، وهل بإمكاني رؤيتهما ؟

هما في مكان امين وآمن ومحمي ، لا استطيع البوح بموقع المكان، وستراهما في الدير قريبا ، عندما اخبرك بوصولهما .

قال الأب أنطون :

إلى الطعام الآن ، وسنكمل الأحاديث على المائدة .

كأنت هذه اللحظات ، أحلى ما مر على ياسر في حياته ذللها . ففي يوم واحد اجتمعت المسرات كلها .

(٩)

خيمت أجواء السعادة على أبي أرز وسعاد . ليس افضل من النجاحات والإنجازات في جلب السرور والسعادة للنفس . كان يوما للراحة بعد اسبوع خطر وشاق . جلس في الحديقة ينتظر قدومها . ولما نزلت ومعها صينية القهوة والفناجين . زغرد قلبه كشحرور . بعد تبادل تحية الصباح ، وابتسامات العيون قبل الخدود .

صارا يحتسيان القهوة، والعيون تحدق بشغف في العيون ، لكن لابد من الحديث ، ففي الآونة الأخيرة لم يكن الحديث إلا عن المعارك وارشفتها ، أو بثها بشكل مباشر. لذلك رغبا اليوم في حديث الشعر والعواطف .

قال أبو أرز :

لقد عشقت كتابة القصائد ، وأصبح عندي العديد منها ، فهل تكتبين أنت قصائدك كما أفعل ، و ما مفهومك للقصيدة ؟

قالت :

القصيدة عندي لحظة ولادة بلا ميعاد ، إنها لا تتقيد بالوقت ولا بالبروتوكول أو الأتكيت . هي حصان جامح في البراري ، تحرر من لجامه وسرجه وقيوده ، ينعم بالحرية المطلقة في أرض شاسعة مليئة بالطيوب والندى والعشب الطري والنرجس الفواح والحان الطيور ....

اكره طريقة الفراهيدي في النظم ، إنه يذكرني بالأصفاد والقيود .

القصيدة عندي لوحة جميلة تبعث على الانبهار والدهشة الجارحة .

تحرك الروح والفكر والمياه الراكدة هي امرأة استثنائية مبهرة . إنها طفل على ثدي يرضع . او ايقونة ترصع صدر الدير . أو صرخة في فضاء يزينه قوس قزح . أو إشراقة صوفية لحظة التجلي .

إن ما تقولينه الآن هو شعر بحد ذاته ، وبخة صوتك موسيقى .

وطلتك البهية أروع من قمر نيسان !

ما آخر قصائدك ؟

اخرج من جيبه ورقة ، وقرا لها قصيدة ، كان قد كتبها لها في الليل، وهو يتذكرها .

فقال :

نبعك المسحور

من روعته أينع البرق في نشوة .

وفار تنوره ، ليغرق البحور .

في العنق نيرانه في شهقة .

يوقد من ماس ، وزخرف وبخور .

طاقمه شيطان ، وجنيتان وعصفور .

لا يرتوي أبداً من عشقه .

كغابة من صنوبر .

يفوح منها أريجها ، وتنشر العطور .

مزيجها من سندس وارجوان مزهر .

وعود وبخور .

أركانها من مرمر صلد انيق البهاء .

في بهوه يحلو العبور .

عصي على اللمس ، عصي على الامتلاك .

لكنه في تجليه ، يحلو الحضور .

رفته اطرى من طل الندى .

وانعم من حرير .

قالت له :

أنت يا أبا أرز، شاعر حقيقي ، وأنا لا أجاملك ، لكن عليك صقل الموهبة ، والأنتباه للأوزان والموسيقى .

منذ عرفتك أصبح الشعر صديقي . وقرضته ودبجته مترنما متغزلا فيك ، فكان على مستوى روعتك والقك وأناقتك .

استمر... فقد يكون لك ديوان شعر ، أو دواوين ولكنك تقرض الغزل فقط ، نوع شعرك .

لقد كتبت الشعر في التأمل . أو مناجاة الحياة رغم قسوتها .

متلذذا بآلامي ومتعجبا من غدر الناس، وضيق القهم .

اقرأ لي في هذا المنحى .

اخرج من جيبه قصاصة اخرى وقرا .

أين الطريق ... و المدى حريق ؟

ما كل من صادقت ، كان الصديق .

هياكل من رغام ، تدب نحو حتفها بظلفها .

لاهثة ، مرهقة ، تبحث عن سراب .

و شراب ، أو طعام من لباب .

مثل غراب .

احتار في مشيته ، وعانى من عرجته .

ولم يعد مقلداً ، فأوقع في العذاب .

هياكل تموهها الأسمال والقذى .

وتقتات بالقشور والبثور ..

يضاجعها أذى .

تشرب الغدر بطعم الأفعوان و الثعالب .

و ترمي لحمها للكلاب .

بخوف الأرانب .

علها تظفر ببسمة رضا .

أو عتاب من محب يزيل الغم .

أو قليل من رضاب .

وسكين الجلاد تعمل في العظام .

والترائب .

نحن في زمن العجائب .

اضحت صقورنا مدجنة .

كدودة من لزاب .

كشلالة من خراب .

او بقعة غائمة في سراب .

قالت :

والله إن شعرك يا أبا أرز في تحسن ، وعندك

صدق القول والإحساس ، لكنك متشائم ، ومعك الحق فحياتنا تراكم من الإخفاقات .

الآن أشعر بمتعة الحياة وإقبالها ، لقد غادرني الإخفاق ، وعاد إلي الأمل . دعينا الآن من الشعر، ولنبحث في الأهم .

- وهل يوجد أهم من الشعر ؟

نعم هندسة حياتنا ، وتقريب اقترائنا ، وبكلمة مختصرة : أن يتم الآن زواجنا .

ضحكت ، وقالت متجاهلة قصده ، مدعية عدم الفهم وهي عارفة

حتى حديثك العادي صار شعراً ، لم أفهم ماذا تعني ؟

أعني أن نقترن ببعض ، ونتزوج الشهر القادم.

اتفقنا أن يكون الزواج بعد خروج المحتل .

اعتقد أن هذا الشرط غير مقنع ، ولا فائدة منه ترجى ، وقد يطول الأمر . سأفاتح أمك بديعة ، وابن خالتك أبا الحارث ، لنرى رأيهم في ذلك .

نزلت أمها بديعة من الطابق العلوي، وانضمت إليهما ، ففاجأها

ابو أرز بطلب يد ابنتها منها ..

قالت :

لا مانع عندي إن وافقت سعاد ، وعلى كل سنعلم ابن اختي ابا الحارث غداً بما قررت هل وافقت سعاد على طلبك وميعادك ؟

ابتسمت سعاد مطرقة خجلة !

قالت الأم :

كل الأمور إذن محبوكة ، وجميع الأطراف راضية . على بركة

الله .

بعد يومين ، وافق أبا الحارث ، واتفقوا جميعا على عقد القرآن

بعد أسبوع ، والزواج بعد شهر ، فقال أبو أرز :

لماذا لا يكون عقد القرآن غداً .

قال أبو الحارث :

غدا معركة حاسمة، ستجري في مكان قريب من المنطقة الخضراء . وستصوراتها وتبنائها إلى المحطة فورا . وبعدها بأسبوع سنعقد القرآن .

في اليوم الثاني حدث الصدام. وبينما كأنا يصوران ، هاجمت قوات محمولة ومدرعات ، منطقة تمركز المجاهدين التي يصورانها .

وفي الجو كأنت حوامات من نوع (الأباتشي) ، تقذف بحممها وصواريخها ، اشتعلت الأرض والسماء وكأنما أبواب جهنم فتحت على

مصراعيها ، ولم يستطع ابو أرز أن يصور إلا بالقدر الضئيل ، فقد كأنت القذائف تأتيه من كل صوب ، حيث كان يقبع هو وسعاد .

وانسحب المقاومون أمام قوات الاحتلال، وبعضهم قتل ، وتناثرت اجسادهم اشلاء . واتت قوة غازية أخرى تمشط الأرض ، وتقضي على من تبقى . وبينما هما كذلك إذ بأربعة جنود يصلون إلى حفرتهما موجهين فوهات البنادق والحراب باتجاههما . فاضطرا إلى الاستسلام واخذ الجنود الـ (كاميرا) المحمولة وجهاز البث ، ثم قيدوهما . واركبوهما بسيارة عسكرية. وبعد مسيرة نصف ساعة ، وصلا إلى السجن ، وبدأت في

حياة ابي أرز ، مأساة جديدة لم يكن ليتوقعها ، أو يحسب حسابها ، كما أوقعت سعاد بفاجعة أكبر من فقدان أبيها .

عند وصولهما السجن ، فصلوا بينهما ، فأخذ الحرس أبا أرز إلى قسم الرجال ، وأخذ حرس آخر سعاد إلى قسم النساء . كان أبو أرز رابط الجأش مصمما على أن لا يبوح بأية معلومات قد تضر المجاهدين ، فهو يعرف القناقي، ومستودع السلاح في قبو النبيذ . ويعرف الاسم الحقيقي لأبي الحارث، ويعرف أسماء مجموعات أخرى . اشترك في تصوير معارك دارت بينها وبين قوات الاحتلال : لكنهم منذ وصوله زجوه بزنزانة ضيقة تشبه قبرا ، وتركوه ساعات . جاء عريف ومعه مجندة ، وتناوبا على ضربه وإبدائه ، دون أن يسألاه سؤالاً ، أو يتكلما معه بكلام .

ربطت الجندية رقبة ابي أرز بحبل . وقادته كحيوان إلى مجموعة مساجين في قووش السجن ، فراى اكواما من البشر ، عارية تماما مكومة فوق بعضها ، والسياط تضرب

بها . جاء آخرون يدلقون براميل الماء على تلك الأجساد ، فيسيل الدم.

ثم يعاود الأولون الضرب . الصراخ على أشده ، والسياط تأكل اللحم

الطري . جرته المجندة الأمريكية من رقبته وقالت :

ستشاهد الآن فيلما لرجل يغتصب .

لم يكن فيلما ، كان واقعا مقززاً . أتوا بالسجين ونزعوا عنه ثيابه ثم جاء جندي أمريكي أسود كالوحش ، فاغتصبه أمام أبي أرز ، وأمام

المجندة التي كأنت تضحك ، وتقول لأبي أرز :

سيكون مصيرك مثله : إن لم تدل بما تعرف من معلومات كاملة ، وتدلنا على أماكن اختباء المخربين .

ادخلته إلى الغرفة الثالثة . كان سجين مطروح على الأرض .

وثلاثة جنود يبولون فوقه ، ثم تغوط أحدهم على وجهه ، وكان السجين مكبل اليدين ، وعلى فمه لصاقة . عادت المجندة بأبي أرز إلى زنزانته ، وأغلقت الباب وتركته ، لم يستطع أبو أرز أن يستوعب المأساة . أهذه الحضارة التي جاؤوا ليتمموها ؟ أم هذه الحرية التي يرفعون شعاراتها ؟ مازال الاشمئزاز والتقزز والألم والتمزق يلف كيانه ! إنه يشعر بالغثيان ! هل يعقل أن يفعل البشر بالبتر مثل ما شاهد ؟ هل يعقل أن يفعل المحتلون ، الذين ادعوا أن معينهم كان لنشر الحرية والكرامة ، ولتخليصهم من الديكتاتورية : أن يفعلوا مثل ما فعلوا ؟ لو نقل إليه الخبر أحد لما صدقه ، ولظن أن ناقله قد بالغ . إن ما شاهده تقشعر له الأبدان .

بعد ساعات فتح جندي زنزانته ، ثم عصب عينيه وفيد يديه . وقاده إلى غرفة التحقيق . المحقق يتقن العربية ، ويعرف كيف يستخرج المعلومات من ذهن السجين .

قال لأبي أرز :

نحن نعرف كل شيء عنك يا أبا أرز، ونحفظ تاريخ حياتك أكثر منك ، ولقد شاهدت بعينك كيف يعذب الأغبياء ، الذين لم يدلوا بمعلومات يعرفونها ، لقد أهينوا وضربوا بالسياط ، وبال الجنود عليهم وتغوطوا ، وبعضهم اغتصب . فكن أنت يا أبا أرز ذكياً واعطنا ما تعرف من أسماء المخربين .

السؤال الأول يا أبا أرز ، لحساب من تعمل ؟

الحساب الفضائية اللبنانية ، وصاحبها أنطون شركس .

لماذا لا تتواجد في المنطقة الخضراء ؟ وقد خصصنا لكم غرفا ؟

لماذا تبيت خارجها ؟ فتعمل بتنسيق مع المخربين من خارجها ؟ ثم عند من تسكن ؟ ومن يعاونك ؟ ومن ذلك على تلك الأسر ؟

اسئلة عديدة متلاحقة تلقاها . كيف يبدأ الإجابة ؟ إنه مرتبك ، فقال :

اصور ميدانيا ، وقد سكنت عند أسرة وأدفع اجرا . أنا إعلامي يحميني القانون الدولي .

- من هؤلاء ؟

- لا أعرف أسماءهم ، ولا يعنيني من يكونون ، المهم أنت وجدت ماوى.

من ذلك عليهم ؟

أناس لا أعرفهم دلوني . التقيت بهم صدفة في المقهى . سألت عن غرفة للإيجار ، فدلوني إلى دار ، استأجرت منها غرفة .

من تعرف ممن يدعون بالمقاومين الثوار؟ أي المخربين .

اعطني الأسماء بسرعة ؟

- لا أعرف منهم أحدا.

انهال عليه المحقق بضربة على مؤخرة رأسه بكعب مسدس ، فجأة غاب النور عن أبي أرز . أراد أن يقول شيئا للمحقق ، فلم يستطع كان لسانه قد تجمد . حاول إصدار حشرجة ، فصدرت عنه كالأنين حتى حباله الصوتية ، ظن أنها قد قطعت أو يبست .

لما رأه المحقق ساكنا لا ينطق ، قال له :

أنت مصر على عدم النطق ؟

حاول أبو أرز أن يقول شيئا . لم يستطع كأنت صورة المحقق تبدو أمامه كخيال ، والضوء شحيح لكن شيئا من الظلمة ، التي انزلت عليه كالصاعقة المفاجئة، تبدد شيء من ظلامها . ظن المحقق أن أبا أرز يستطيع الكلام ، لكنه مصر على الصمت ، حتى لا يكشف أسماء المجاهدين .

قال المحقق :

أنا أعرف كيف ادعك تنطق ، وتعطي كل ما تعرف من

معلومات وأسماء .

غاب المحقق قليلا ، ثم عاد ومعه سعاد معصوبة العينين ، مقيدة اليدين ، يقودها جندي أسود البشرة . جلس المحقق على كرسيه . وأمر الجندي أن ينزع العصابة السوداء عن عينيها .

قال لها المحقق :

أتعرفين هذا الرجل يا حلوة ؟

إنه أبو أرز زميلي في تصوير المعارك ، ونقل الأخبار .

إنه غير متعاون وعنيد : انصحيه باللين والإدلاء .

لم تنطق سعاد بأدنى كلمة ، فاتجه المحقق إلى أبي أرز وقال :

ما رأيك يا أبا أرز ، أن نزوج سعاد الآن من هذا الجندي الفحل .

الذي تراه أمامك ؟

لم ينطق أبو أرز بكلمة ، لأن ضربة عقب المسدس على دماغه ، قد عطلت آلية النطق لديه .

قال المحقق :

أما زلت مصراً على الصمت ؟

لم ينطق أبو أرز ، فازداد غضب المحقق . أمسك المحقق قميصها ،

ومزقه بعنف بكلتا يديه ، فبانت حمالة الصدر ، وأجزاء من جسدها البض .

ثم أعاد القول :

اظنك ستتكلم الآن من هم الثوار المقاومون ، الذين تتعاون

معهم

لم يجب أبو أرز بأية كلمة، خرج المحقق عن طوره ، وأصابه هيجان أوعز المحقق للجندي بأن يخلع ثيابه ، ويغتصب سعاد أمام

عيني أبي أرز .

في الحال كان الجندي قد تعرى ، وكأنه كان يعرف مهمتاء التالية ، لكنه يقي بلباسه الداخلي فقط

قال المحقق :

اما زلت يا أبا أرز، مصرا على الصمت ؟ إن عروس سعاد سيدخل اللحظة بها ، فتكلم لتحفظ لها عرضها وشرفها .

حاول ابو أرز أن ينطق فلم يستطع . تحرك يمينا ويساراً قيده محكم منعه من الحركة ، لكنه أصدر حشرجة وانينا ، وجرت دموعه غزيرة على خديه ، لكنه لم يستطع الكلام .

أمر المحقق الجندي أن يغتصب سعاد أمامه، فانقلب الجندي إلى

هيئة ضبع مفترس على وجهه ابتسامة شريرة ، كضيع جامع - مرق ثيابها ، فأصبحت شبه عارية، وهي تصرخ وتستغيث ، لكنها مقيدة اليدين إلى الخلف، وما من معين : الثياب كلها أصبحت ممزقة ، وهي عارية الآن تماما ، وأمام عيني أبي أرز الكليلتين فض الوحش عذريتها، وأزال براءتها ، لقد رأى أبو أرز كل الذي جرى وتم ضعف رؤيته الطارئة أصبح لون ابي أرز احمر قانيا ، ثم أزرق مسودا ، ثم

فقد الوعي تماما ، كان الجندي الأمريكي قد أنهى مهمته تاركا الدماء تنزف من سعاد . كان الجندي ساديا متخصصا بهذا النوع من التعذيب . فمرق لحمها كوحش بأظافره وأنيابه ، وضربها على وجهها وخديها وراسها وصدرها، حتى غابت عن الوعي ، وأمره المحقق بلبس ثيابه . الاثنان كأنهما فارقاً الحياة بأبشع صورة . هما غائبان عن الوعي فقط ربما تمنيا الموت ، فلم تتحقق امنيتهما . أخذ ابا أرز إلى المشفى المعرفة هل مات ؟ ام بقي فيه شيء من حياة ؟!

وبدورها نقلت سعاد إلى السجن، لتقديم الإسعافات الأولية . بعد أن لفلفت بثيابها الممزقة .

في المنطقة الخضراء، علمت جويل وياسر نبأ اعتقال أبي أرز ومعه سعاد ، لكنهما لم يعرفا التفاصيل المأساوية . قابل ياسر المسؤول الأمريكي المشرف على المحطات الأجنبية ، طالبا الإفراج عن أبي أرز كونه إعلاميا لبنانيا ، يغطي الأحداث الميدانية.

فقال له المسؤول الأمريكي :

نحن منعنا التغطية الميدانية . لكل الفضائيات العاملة هنا .. وأنتم خالفتم التعليمات ، ولابد أن أحدا من الخربين الثوار ، يتعامل مع صاحبكم ، لذلك يحققون معه بمنتهى الأدب ، وبأروع الطرق الحضارية . سيعود إليك قريبا .

قال ياسر :

لا ليس في الأمر شيء من ذلك . أعني أنه ليس لأبي أرز علاقة

بالمقاومين ، أرشدونا لمكانه لنرى حالته ونزوره .

خرج المسؤول الأمريكي، وغاب قليلا ثم عاد .

هو في مشفى عسكري ، أصيب من الخوف بصدمة نفسية ، يعالج الآن وسترونه بعد أيام .

في هذا الوقت كان أبو أرز ، يحمل إلى المشفى العسكري ، ليفحص بدقة تبين أنه قد أصيب بأذية دماغية ، نتيجة ضربه بكعب مسدس على مؤخرة رأسه. لكن قلبه سليم ومازال ينبض . انقدته هذه الضربة النطق قد يشفى منها ، أو يظل أبكما طوال عمره ، وقال

الطبيب المعالج :

- لا يمكن نزع معلومات منه ، بأي شكل من الأشكال ، لذلك

يفضل ترحيله خارج البلاد .

علم أيضا بهذا المصاب الجلل ، أبا الحارث فوضع خطة لأخذ الاحتياطات اللازمة ، أرسل خالته بديعة إلى القارب لها في شرقي بغداد هناك المنطقة خطرة فيها عصابات طائفية وإجرامية . لكن الأمريكان لا يرتادونها إلا فيما ندر، تاركين السكان يقتل بعضهم بعضا اقامت بديعة حزينة عند أقربائها ، وبعد ليلتين من قدومها . دخلت عصابة مسلحة ليلا إلى تلك الدار حيث تقيم . كانوا ملثمين اخرجوا كل من في الدار إلى الباحة . عزلوا النساء على طرف . والرجال إلى جانب وأمسكوا بالأطفال الصغار . كأنت بيد كل فرد من

العصابة سكين وعصا ، وقد علقوا بنادقهم على أكتافهم ، وقسم آخر دخل البيت ليسرق المصاغ والنقود، ودون أدنى سبب ذبحوا الأطفال أمام أعين أبائهم وأمهاتهم ، كما تذبح النعاج والخراف في المسلخ، ثم اغتصبوا الفتيات أمام أعين أبائهن وأمهاتهن ، وهن يصرخن ، والدماء تنسال من بين افخاذهن

تحرك أحد من الرجال، يريد أن يدافع عن ولده، فلقي حتفه على الفور ، بطلقات بندقية من أحد رجال العصابة ، وتسمر الآخرون خائفين، وعندما انتهوا من اغتصاب الفتيات ، ذبحوهن والقوهن إلى جانب الأبناء الذكور المذبوحين، والذين تصفى دماؤهم في بلوعة قريبة من الجثث . الآن جاء دور النساء ثلاثة رجال كالوحوش ، تهيؤوا لاغتصابهن أمام أزواجهن تم اغتصابهن ، وسط صراخ النسوة ونحيبهن وضعت السكاكين على رقابهن ، وحن يغتصبن، ثم ذبحن بالسكاكين ، أثناء عملية الاغتصاب أو بعد الانتهاء من الاغتصاب. وكان فصل رؤوسهن وهم جائمون فوق صدورهن . غب الاغتصاب مع النشوة الأئمة . يا للفظاعات المرتكبة ! بعض الرجال أغمي عليهم ، وكل رجل أغمي عليه قتل . آخر المقتولين .

كانوا الرجال الباقين، الذين شاهدوا أولادهم يذبحون ، وبناتهم

تنتصب ، ثم تنبح واخيرا نساؤهم تغتصب ، ثم تفصل رؤوسهن .

كوموا جميعا فوق بعضهم بعضا . ثم صبوا البنزين والزيت عليهم واحرقوهم ، فاشتعلت النيران، واحترق اللحم والدهن كان اللصوص قد نهبوا كل شيء في الدار .

حتى أسلاك الكهرباء نزعوها منالحيطان. صنابير الماء وادوات المطبخ والثريات والسجاد ، كأنت على باب الدار سيارات شاحنة ، ملئت بالأسرة والفرش والسجاد، وكل ادوات البيت حتى المسامير ، قلعوها من الحيطان وأخذوها . بقي البيت دون أبواب ودون شبابيك ، ثم أشعلوا النيران في المنزل وغادروا .

كأنت بديعة قد نزلت إلى بئر واختفت فيه ، وكأنت تشاهد كل ما حصل . اخيرا لم تسعفها قدماها فهوت إلى قاع البئر. ومن حسن حظها ، أن مياه البئر ضحلة ، فبقيت على قيد الحياة لليوم التالي ، حيث جاء نفر يلوذون بأهل الدار المذبوحين فأخرجوها ، وروت لهم ما شاهدت وهي فاقدة العقل من حول ما رأت !

عرف أبو الحارث ما جرى ، وانقذ خالته بأن أودعها في دير الأب انطون ، هي وبعض الناجيات من تلك المآسي ، لأن هذا الهجوم شمل عدة بيوت طالتها تلك العصابات الطائفية الآتية من خارج العراق ، ومعها بعض المرتزقة من الخونة .

مرت ايام سمح فيها الجويل وياسر بزيارة ابي أرز ، وشرح لهم الأطباء وضعه ، وقال كبيرهم :

لقد فقد النطق بسبب صدمة نفسية ، من هول القتال .

لم يصدق ياسر وجويل قول الطبيب ، لأن آثار التعذيب واللكمات

ما تزال باقية ، فطلب ياسر من إدارة السجن تسليمه ابا أرز ، باعتباره عنصر من عناصر المحطة الفضائية ، فوعدوه بعد اسبوع

حتى يتماثل للشفاء تماما ، لكن إمكانية النطق لديه تبدو صعبة .

علم القناقي بكل التفاصيل ، فوضع مع أبي الحارث خطة لتحرير سعاد ، التي أودعت في مشفى السجن القريب . وضعت خطة محكمة ، ونفذت بدقة وجرأة فائقتين . وذلك بعد عشرة أيام من اغتصابها .

كأنت جروح سعاد قد تماثلت قليلا للشفاء ، لكن الصدمة النفسية كأنت أكبر من جروحها ، ونفذت تلك الغارة الليلية على مشفى السجن ونجحت العملية ، وحررت سعاد ، ونقلت بسيارة إلى دير الأب انطون .

وكان هواش قد غادر إلى هناك بسيارة الرانج) ، ومعه بعض العناصر، وظلت سعاد عشرة أيام في الدير تحت إشراف الأب أنطون ، يواسيها ويعظها ويقرأ لها من الإنجيل حتى صحيت بعض الشيء من صدمتها، واستردت قليلا شجاعتها .

وفي أحد الأيام ، اتصل جبور القناقي بياسر ، قائلا :

سنلتقي في الدير ، وستجد هناك الأخبار السارة.

أخبر ياسر جويل بما قاله القناقي، وسيغادر إلى الدير صباح الغد. قالت :

سأذهب معك .

الفضل أن تبقي في المحطة . فقد يصل أبو أرز في أية لحظة ويفضل أن يكون أحدنا إلى جانبه .

رأيك مصيب ، اذهب أنت إلى الدير وسأمكث هنا .

وغادر إلى الدير ، بعدما اتباه هواش أنه ينتظره عند المفرق ، وقاد هواش السيارة إلى غابة الدير ، وعند وصوله ، استقبله التنافي والأب أنطون بالبشر والسرور والقبلات والعناق ..

قال ياسر:

ما البشارة وما حقيقة الأمر ؟

ولداك ثائر وكفاح في القاعة داخل الكنيسة . تماسك ، وكن رابط الجأش ، لقد جمعك الله بهما بعد فراق . اذهب إليهما لقد ردا إليك ، كما رد يوسف لأبيه.

ركض مهرولاً باتجاه القاعة. بينما بقي الجمع خارجها . وعندما التقاهما ، هجم على كل واحد منهما يحضنه ويقبله ويبكي بكاء غزيراً مدراراً ، هو بكاء الفرح وكذلك أولاده فرحوا وبكوا ، وكأنهم عادوا إلى الحياة بعد ممات.

قال كفاح :

لقد سببنا لك الألم والحزن والمشقة والعذاب والخطر يا أبي فسامحنا .

قال ثائر :

- اغفر لنا يا أبت خطيئتنا ، لكننا ادينا واجبنا تجاه إخوتنا . لم تحمل سلاحا ولكننا حاربنا من خلال مواقع التواصل ودافعنا بالكلمة. وخدمنا إخواننا المدافعين عن أرضهم ، خدمة توازي القتال

لأن هذا ميداننا ، وعلى كل امرئ أداء واجبه ، ضمن ميدانه الذي يتقن .

جاء الحضور ، ورحبوا بكفاح وثائر مرة ثانية . وهنؤوا أباهما بروعة لقائهما ، لكن ياسر قال :

اين سعاد ؟

قال الأب أنطون :

هي في غرفة الكنيسة الخاصة بالمطران ، سآتي بها .

ذهب الأب انطون إليها غاب قليلا ثم عاد ، يتأبط ذراع سعاد كأنت ضعيفة كليلة منكسرة النفس ذليلة ، لما رأها ياسر احتضنها وقبلها في جبينها .

وقال مخاطبا الجمع كله :

هذه الفتاة : أشرف من عرفت على سطح الأرض . أنبل من كل ثائر ، وأفضل من كل مقاوم . إن فرحتي باقائها اليوم ، لا تقل عن فرحتي بلقاء ولدي كفاح وثائر ، و يعود الفضل إليها وإلى أبي أرز في

نجاح عملنا ، قالت بانكسار :

ما أخبار أبي أرز ؟

لقد شفي من الكدمات، وسيأتي إلى الحطة لينزل في غرفته ،

لكن عنده مشكلة في النطق . ربما يشفى منها مستقبلا .

أدخلهم الأب أنطون إلى القاعة الرئيسة في الدير قائلا :

لقد جمعنا المسيح على محبته . وانقذنا من الشرير - خضعنا للامتحان ونجحنا ، وستكون الأمور بخير ، ويصلح كل خطأ .

أصدرت الفضائية الأمريكية ، التي تبث من العراق نبأ يفيد : أن بعض المولجين في سجن ابو غريب ، وسجون اخرى ارتكبو تجاوزات ، وسيقدمون للمحاكمة . لم يصدق أحد هذا القول ، لأن جرحى عراقيين في مسجد قتلوا ، وهم عزل بدم بارد من اقبل جنود أمريكيين ، ولم يحاسبوا .

سياسة الكذب والكيل بمكيالين ، كأنت تطبق على كل الأصعدة .

(١٠)

عاد ياسر إلى مقر البعثة ، وقد قرر في نفسه أمرا أكيدا ، عليه أن يفر بولديه إلى بيروت ويرمم ما تبقى من أسرته . لقد تحقق هدفه .

فما عليه غير ترك المهام الجويل ، التي رغم أنها احتلت حيزاً كبيراً من قلبه إلا أن الأبوة تقتضي أيضا إعادة هيكلة مستقبل ولديه ، ولم ينس أيضا أبا أرز الذي أصبح وضعه يحتاج إلى معاملة خاصة . وشاور انطون شركس باتصال مطول ، فوافق على عودته .

قال أنطون شركس :

إن أعضاء بعثتكم قد أمضت فترة طويلة في العراق ، ويتوجب إرسال بعثة جديدة لإراحتكم ، لقد قمتم بجهد مشكور ، ويحق لكم الآن العودة . لتستريحوا من عناء الأهوال ومكابدة المخاطر ، وسنرسل طاقما جديدا من بيروت إلى بغداد بالطائرة . ليتسلم مهام بعثتكم .

لكن على بعضكم الانتظار ، والبقاء مع الوفد الجديد أسابيع ، ليتمرن المستجدون على أرض الواقع ويتقنوا عملهم ، كما أتقنتم

ولما سأله ياسر عن مصير ابي أرز . وان اذيته، قد تمت بسبب عمله.

قال انطون شركس :

سيسافر معك وبرفقة ولديك إلى بيروت . وسأخصص له راتبا تقاعديا كبيراً . فالرجل أصبح عاجزا ، لا يستطيع القيام بأي عمل ..

ويمكن لك يا ياسر أن تجهز أوراقك وأوراق ولديك ، للقدوم لى بيروت خلال ايام .

بعد وصوله إلى مقر البعثة رحبت به جويل قائلة:

أهنئك بالتقائك بولديك ، ولقد حققت هدفك الذي سعيت إليه بداية ، وعليك بالإعداد للمرحلة القادمة .

كان لقائي بهما عظيما !

لقد أتوا بأبي أرز ، وهو الآن في غرفته، مستلق على سريره .

ويبدو انه قد تعافى ، لكن لم يعاوده النطق ، وبيده دفتر وقلم ، وعن طريق الكتابة يتم التفاهم .

- لقد وافق أنطون شركس على عودته ، مخصصا له راتبا دائما ، وسأسافر أنا وولدي إلى بيروت قريبا ، وأنت وبقية الطاقم - تلتحقون بنا في بيروت بعد أسابيع ، فأنطون شركس ينوي تبديل الطاقم.

هل سأبقى وحدي ، أدير المحطة ؟

سيرسل انطون جركس طاقما فنيا وإداريا جديدا للبعثة .

لكنكم ستبقون معهم اسابيع تدربونهم وتعلمونهم : لكي يذل للبعثة نجاحها ، وسبقها الصحفي و الإخباري .

لن تكون بأي شكل من الأشكال ، مثل بعثتنا الأولى هذه . ولن تقوم بما قمنا به ، لأن الفضل لأبي أرز وسعاد . وقد خرجا من ساحة العمل .

هلمي بنا لرؤية ابا أرز في غرفته .

دخلا على ابي أرز . حاول القيام لكن ياسرا أسرع وضمه ، وهو في

السرير . عائقه قائلا :

ابشر يا ابا أرز، جاء الفرج ، سنغادر إلى بيروت ، ولقد عثرت على ولدي ، سنجتمع في بيروت كلنا ، وستصلح كل الأخطاء ، وترمم الشروخات وستعود يا أبا أرز ، إلى كامل صحتك وعافيتك.

تناول أبو أرز قلمه ودفتره ، وكتب :

وسعاد ما أخبارها ؟

هي عند الأب أنطون، بحماية ورعاية ، وإعادة تأهيل ، إنها بخير وسألت عنك ، واخبرتها أنك بصحة لا بأس بها ، وأنك ستعود إلى

مقر البعثة .

مكتب أبو أرز على دفتره .

هل يمكن لي أن أذهب إلى ذاك المكان ، فاراها ؟

قال ياسر :

من الصعوبة بمكان الذهاب إلى هناك ، لابد أننا مراقبون أكثر من أي وقت مضى، وأنت بالذات يا أبا أرز، مازالوا يشددون عليك المراقبة ، لأنهم يظنون أنك الخيط الذي يؤدي إلى المجاهدين . سيكتشف الأمر كله ، ويعرفون قبو النبيذ ويلقون القبض مجددا على سعاد ، وعلى ولدي أيضا ، لذلك من الاسم أن لا تفكر بالذهاب .

لكن سيأتي اليوم الذي تجتمع بها ، وتتلاقيا في بيروت ، وقد وعدني القناقي وأبو الحارث بذلك. سنجهز الأوراق للسفر إلى بيروت ، وهناك سنبدأ مرحلة جديدة من حياتنا ، وستلحقنا جويل بعد وصول أفراد البعثة الجديدة بأسابيع، وانطون شركس هو من أخبرني بهذه التفاصيل - سنتركك يا أبا أرز لتستريح في سريرك ، وسأقوم أنا بإجراءات العودة، وأخذ موافقات السفر ، لأننا سنسافر بالطائرة عائدين ، أعطني جواز سفرك ، وسأحجر بعدها في أول طائرة عائدة إلى لبنان .

أنتاب ياسر في هذه المرحلة شعوران متناقضان، فهو فرح بلقاء ولديه ، وحزين المصير أبي أرز وسعاد كما أن ابتعاده عن جويل سيؤرقه ، فقد ألفها ويكاد حبها يتملك كامل قلبه ، إلا أنه أحياناً يجدها لا مبالية ، وكأنها صديقة لا حبيبة . يعذرها والتمس لها المسوغات فالذي مر عليها ليس بالقليل، ولكن الذي مر عليه أيضا ليس بالقليل ، فخيانة زوجته وغدر اخيه زهير به وبأديه ، ليس بالقليل أيضا ، ولكن أباه قد نهض وعاد لقوته ، وازداد ماله وكثر . بمعاونة ومباركة من جورجيت في آخر مكالمة أجراها مع أبيه ومع جورجيت ، التي غدت زوجة أبيه قال الأب :

لقد قررت جورجيت التقاعد، وأنهت عملها في تأجير غرف دارتها ، لقد أصبحت الدار من أربع عشرة غرفة ، وأعدنا ترميمها وتجميل ديكوراتها . جددنا ورود الحديقتين ، وأصبح رقام البركة

لامعا ، لأن الله فتح لنا أبواب الرزق، وعاد لنا المال وفيرا كما كان في دمشق . ننتظر عودتك مع ولديك لتنعم بهذه الدار الجميلة معا ..

تكلم مع خالتك جورجيت .

ابني ياسر . اشتقت إليك ! لقد عوضني الله الولد بك .

وعوضني أيضا بالزوج الصالح ، لا تتصور يا ياسر ، كم نحن سعداء الآن عادت الفيلا إلى كامل بنيانها ، وخرج النازلون إلى غير رجعة .

فقد سئمت استقبال الغرباء، وقرفت من بعضهم . العصافير والأطيار عادت إلى الحديقة بكثافة، والزهور لا تتصور روعتها ! إننا نعيش في جنة حقيقية ، ولا ينقصنا سوى وجودك ، ووجود ولديك ، سنسكن معا، وتترك شقتك ، وفي ذلك كل السعادة .

تخيل نفسه ، وقد عاد الصفاء والوفاء والحب ! لقد اجتمع بأبيه وبولديه وبجورجيت أيضا، والتي عوضته منذ دخل دارتها حنان الأم وعطفها ، وكأنت امرأة صالحة ، ما أروع الأيام القادمة إذا .

بعد أسبوع كأنت كل الأوراق جاهزة، وتحدد السفر بعد خمسة أيام ، ففكر أن يزور الدير ويودع بديعة ، التي أصبحت تقيم هناك مع ابنتها سعاد . وربما وجد القناقي هناك ، لأنه علم بموعد سفره ، ولا بد أن يلقاه . من واجبه أن يودع الأب أنطون وهواش وأبا الحارث . الذي أصبح مقيما أيضا، في تلك الديار والمسؤول عن قبو النبيذ . اتصل بهواش الذي قال له :

. سأنتظرك بسيارة الرانج) في المكان المحدد .

ركبا متجهين نحو الدير، وخلال الطريق قال ياسر :

- ستبقى يا هواش ، أنت وابو الحارث في بغداد على ملاك البعثة موظفين وعاملين ، وستبقى جويل حاليا ، ومعها الفنيين رئيسة للبعثة ، حتى يأتي الطاقم الجديد ، أما أنا وأبو أرز وولاي فإننا سنغادر إلى بيروت قريبا ، وقد نلتقي هناك في بيروت في يوم ما، بعد أن تضع الحرب أوزارها .

ووصلا الدير، واستقبلهما الأب انطون مرحبا ، والتقى بولديه ، وأخبرهما بموعد السفر . ولم ينس أن يتحدث مع بديعة وابنتها سعاد، ويحثهما على الأنتقال إلى بيروت والعيش هناك ..

وقال له الأب أنطون :

سيأتي القناقي وأبو الحارث اليوم إلينا ليودعاك ، أما الآن فعندك الوقت للسباحة مع ولديك في البحيرة ، والتجول بالقرب .

ووجدها فكرة ممتازة ، فبعد جلسة أعقبها تناول طعام خفيف ،

ذهب ياسر وولداه إلى البحيرة ، عندها تذكر ياسر لقاءاته بجويل وحدهما في ذاك المكان فعاوده الحنين ، وتحركت لديه عواطفات سامية وقرر أن يمنحها كامل حبه ، فيتزوجها عند عودتها إلى بيروت ، بعد تجديف في القارب عادوا إلى الدير ، حيث كان الجميع بانتظارهم ،

وكان القنافي وأبو الحارث قد وصلا ، فاجتمعوا على مائدة الغداء ، واصر ياسر ، أن تجلس بديعة وابنتها سعاد إلى جانبه .

ثم قال مخاطبا الحضور :

لن انسى جميل أمي بديعة ، واختي سعاد ، ولن أنسى الوطنية والوفاء النادر ، إنهما الشرف بذاته، والإيمان بقوته .

ثم اتجه بالقول إلى جبور القنافي وإلى أبي الحارث مخاطبا :

أكون سعيداً لو سعيتما لإحضارهما إلى بيروت. سيكون ذلك من دواعي سرورنا ، وعظيم شرف لنا وسيعيدان حركة حياتهما من جديد في ذلك البلد ، ولهم هناك أب وام واخوة .

قال القنافي :

سأسعى لتسفيرهما عبر البر فالسلطات المحتلة ستقبض عليهما ، إن سافرا بطريق نظامي عبر الجو ، وستكون أنت يا ياسر .

الأخ الصادق لهما ولديك الابنين الصالحين ، فأنتظر بعد سفرك مدة

وستلقاهما هناك .

قال ياسر :

هل هذا وعد ؟

إنه وعد صادق ، سيكونان عندك في بيروت بعد شهر من الآن ..

فرح ياسر فرحا عظيما وقال :

سيكون ذلك يوم المنى !

اقلعت الطائرة من مطار بغداد إلى مطار بيروت صباحا . وكان قد أعلم آباد و جورجيت والشيخ حامد الأغبر، بساعة وصولهم إلى مطار بيروت، فكانوا في استقبالهم بقاعة المطار . خرجوا بعد تفتيش استمر نصف ساعة من بوابة القادمين . خفق قلب أبيه عندما شاهد

ابنه ياسر وحفيديه ، ومعهما أبو أرز ، ولما تلاقيا جرى العناق والتأثر وحتى البكاء . لكنهم وجدوا أن أبا أرز صامتا ، لكن السرور باد على وجهه ، وفي عينيه فرح مكتوم ، وتأثر الشيخ حامد الأغبر ، فعانق

القادمين بحميمية ، وقال :

الحمد لله على سلامتكم ، لقد من الله علينا بعودتكم سالمين .

لتغادر إلى بيروت .

واصر ياسر أن ينزل مع أبي أرز في بيته ، فهو لن يترك أبا أرز وحده .

لكن مدام جورجيت قالت :

أنت وابو أرز في ضيافتنا ، وسيكون معنا الشيخ حامد الأغبر.

وصلوا جميعا إلى بيروت الشرقية ، ودخلوا الفيلا . كأنت قد تغيرت للأجمل ، بعد الديكورات والإضافات التي ادخلتها جورجيت

على الدارة ، قالت :

لم تعد الدارة بنسيونا . هي الآن لنا بغرفها الواسعة المتعددة .

سنبقى فيها لنعيش بسعادة ورفاه .....

اجلستهم في صالون كبير ، اثاثه فخم وجديد وديكوراته رائعة .

حكى لهم ياسر ، عن تفاصيل حياته التي أمضاها في بغداد

وتكلم ثائر وكفاح عن معاناتهما ، واعتذرا من جدهما لأنهما سببا له الألم . وبعد الأحاديث المطولة قاموا إلى غرفة الطعام فتناولوا غداءهم، وحكى ياسر لهم عن اذية ابي أرز .

فقالت جورجيت :

هناك أطباء متخصصون في مشافي بيروت، سيعالجونه ، ويعود إليه النطق .

لمعت الدموع بعيني ابي أرز ، قال الشيخ حامد :

سيكون ابو أرز رفيقي في المسجد ، فقراءة القرآن تشفي الصدور، وتفعل المعجزات.

خصصت جورجيت ، غرفة فخمة لأبي أرز هي عبارة عن جناح كامل .

وقال أبو ياسر مخاطبا ابا أرز :

ماذا تحتاج يا أبا أرز ، لتأتي به في الحال ؟

اخرج ابو أرز من جيبه ، ورقة وقلما ، وكتاب :

اريد دواوين شعر، وأوراقا واقلاما ، البفضل سعاد ، تولعت بالشعر، وأصبحت شويعرا ، وما عدا ذلك لا أريد شيئا .

ضحك ياسر وقال :

غدا سآتيك بالعديد من الدواوين الشعراء متنوعين - فاكتب يا

ابا أور ، ما شئت من الشعر ، فربما أصبحت يوما من أعظم الشعراء .

فرح ابو ياسر بحفيديه، وفرحت جورجيت بياسر ، كابن عاد

من غياب ، وفرحت بقدوم ولديه أيضا ، فقالت :

الآن عادت للدار حياتها، فالمكان بسكانه وكلما زادوا ، كأنت

الحياة أروع والمكان أنصع .

خرج الشيخ حامد الأغبر ، ودعوه على أمل اللقاء ، وقال مخاطبا

آبا أرز :

- سأخصص لك غرفة من غرف المسجد ، تلتقي بأصدقائك القدامى ، وتقرأ من كتب المسجد ايضا، فالشاعر يجب أن يكون متنوع

الثقافة - يصقل المواهب ويشحذ التعابير ، والقرآن هو البلاغة عينها .

فائهل يا أبا أرز، واعد نفسك.

في اليوم التالي جلب ياسر لأبي أرز العديد من الدواوين الشعرية وجلب له أيضا دواوين شعر اجنبية الشعراء غربيين مشهورين مثل بودلير وت . س . إليوت وغيرهما مع أوراق، وأقلام . فانكب أبو أرز على القراءة بنهم ، والكتابة الشعرية بمثابرة وشعف .

اصر ياسر على نقل أبي أرز إلى داره ، لأنهما سيعيشان معا ، حتى يتزوج أبو أرز من سعاد ، التي سيأتي بها القناقي يوما ، وحتى ذلك اليوم سيبقيان معا في شقته

في اليوم التالي ، دعا الشيخ حامد الأغبر ياسرا إلى لقائه في المسجد ظهراً ، فوافاه إلى هناك، وبعد صلاة الظهر ، قال له :

اولادي يريدون أن يسلموا عليك ، ويطمئنوا على صحتك . والواجب أن يذهبوا إليك لا أن تأتي إليهم ، لكن بيروت الشرقية بعيدة، وبيتنا هو بيتك فهلم بنا نشرب العصير .

ودخل ياسر بيت الشيخ حامد الأغبر . فتذكر آخر مرة غادره .. وتذكر كلمات ابنة الشيخ خزامى عندما كلمته ، وكان في دير الزور .

وعدته يومها بالحب والانتظار ..

فقال في نفسه :

) ماذا جرى لها يا ترى ؟ ! وكيف سارت حياتها بعد مغادرتي ، هل أحبت ؟ ربما تكون قد تزوجت ليتني أعلم شيئا عن أخبارها الآن

جلسوا في الحديقة، كان الوقت في أواخر الصيف . الأزهار مزدهرة ... لماذا يشبه الخريف الربيع أحياناً ؟ في بعض الأحيان هو أجمل : أحياناً تكون للخريف بشائر كما للربيع : وأحياناً تزهر بعض الأشجار في الخريف . وهاهي حياته تزهر في حريف عمره ، لكنه كان يشعر انه في ربيع حياته . جلسا على كرسيين ، ثم جاء حذيفة ابن الشيخ ، فتعانقا وشد على يدي ياسر ، وقال :

حمدا لله على سلامتك ، وقد سمعت أن ولديك قد أتيا معك إلى 1

بيروت ، فيما سيأتي من أيام سنتعرف إليهما ، لأننا نعتبرهما أولاد أخ عزيز

أنتم اخوتي الحقيقيون ، وأخي الشقيق كما يعلم الشيخ حامد

قد غدر بأبينا ، وأخذ ثروته وذهب مع يونس الخوخة إلى رومانيا . وأنتم خير إخوة ، كلكم وفاء وطيبة ، يقول المثل : (رب أخ لك لم تلده امك).

قال الشيخ :

الم تسمع ما جرى لزهير وليونس الخوخة ؟

- من أين لي أن أسمع ، وقد كنت منقطعا عن العالم ، وأعيش في أهوال الجحيم .

لقد قرأت أنا الخبر في الصحف ، فقد كأنا يركبان طائرة من رومانيا إلى فرنسا وحدث فيها خطأ فني ، فهوت بين الجبال واحترقت. وقد ذكرت الصحف اسميهما ، باعتبارهما قد أصبحا من رجال الأعمال العالميين المشهورين .

الخير صاعق ومفاجئ . ليرحمهما الله ولا شماتة في الموت .

إن المال الحرام يا أبنائي ، يذهب هو و أهله . وقد سئل النبي (ص) عن المال الحلال أيضا ، فقال إنه أيضا يذهب . والفرق بينه وبين المال الحرام ، أن المال الحرام يذهب هو وأهله . الحلال يذهب وحده .

لقد احترقت طائرتهما ، وأكلت النيران لحمهما ، وقد جاء في الحديث : ومن ثبت لحمة من السخت فالتاز أولى به ، والسحت هو المال الحرام.

لمح من الباب الرئيس للدار ، فتاة ناضجة رائعة الجمال ، تضع على رأسها (إيشاربا) ابيض. وترتدي فستانا فيروزيا طويلا ، فبدت كملاك ، عندما شاهدها عرف أنها خزامى ، ابنة الشيخ ، اتجهت إليهم

قائلة :

سأسلم على استاذي ياسر الخوخة . الذي بفضله حصلت على أعلى الدرجات وفضلت دراسة الآثار والمكتبات على ما عداها من اختصاصات ، وكاد المعلم أن يكون رسولا .

مدت يدها بكل ثقة وصافحته ، وشدت على يديه. ثم صافحت أباها وأخاها ، وجلست معهم قليلا ، ثم قالت :

لن تغادر الدار يا أستاذ ، قبل أن نتغدى سوية .

تعجب ياسر من جرأتها ، وكان فيما يعلم أن بنات المتدينين أو المتدينات ، لا يصافحن الرجال أو حتى لا يتكلمن بحضرتهن ، فعلى زعمهن أن صوت المرأة عورة ، وأنهن يلبسن الأسود من الرأس إلى القدم.

ولا يظهرن إلا عينا واحدة . وعندما غادرت سال ياسر الشيخ :

لماذا بناتك يجلسن بكل ثقة ، ويصافح الرجال ويلبسن ثيابا تظهر وجوههن وأيديهن .

قال الشيخ حامد الأغبر :

كأنت النساء أيام النبي (ص) وبعده ، يجلسن في المسجد

ويناقشن القضايا الفكرية، وأحياناً يجادلن الخلفاء في قراراتهم . فيظهر واقع الحال صواب قراراتهن . إن لم تكن المرأة تتمتع بالثقة

الكاملة والعلم الشامل الجامع فكيف لها أن تأخذ دورها تكون قوة فاعلة وهي نصف المجتمع . والله يقول (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الحيل) والنساء نصف قوة المجتمع ثم إن ابنتي قد تعمل، أو تتوظف . وقد اختارت فرع المكتبات والآثار فان البستها وجلبيتها بالسواد ، فلم يظهر منها إلا عين ، هل أكون قد فعلت ذلك لمصلحتها ؟ إنها لا تستطيع ممارسة مهنتها بهذه الصورة .

وحولة كأنت تركب الخيل وتحارب وكثيرات غيرها أن الحياة تتطور وترتقي ولقد وضع الله في الإنسان ميرة التلاؤم ، لكن، في نفس الوقت ، حصه على الاحتشام ، وقد قال النبي ما معناه أن وجه المرأة ويديها ليستا بعورة وعلى هذه المبادئ ربيت أبنائي ، وعلى الصراحة والصدق عودتهم هم متدينون، لكنهم غير متزمتين ، والعلو غير مقبول حتى في الدين حيث يقول ربنا في كتابه (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)

قال ياسر :

لقد اشتقت لأحاديثك يا مولانا، واجد انك تسعى للحكمة أينما وجدت ومرة قلت لي : إنه لا تعارض بين العلم والدين ، لان الخالق واحد فإذا كأنت الرسالة من عند الله فالعلم أيضا من عنده والكون كله يحكم بالمعادلات ، لذلك خلق الله التوازن في الكون ووضع الميزان

أنت يا بني تحمل بذور الطيبة والإيمان برمج أولادك بالعلم والتقى ، ووجههم إلى الطريق القويم . لقد فاقوا أقرانهم خبرة بذهابهم إلى العراق ، لكنني أجد أن ذهابهم كان مخاطرة غير محسوبة ولقد من الله عليك بسلامتهم .

تناولوا غداءهم ثم عاد ياسر إلى بيروت الشرقية، ليجد أبا أرز . وقد كتب اشعاراً وقرأ دواوينا.

(١١)

مرت ايام على سفر ياسر وأبا أرز إلى بيروت . بقيت جويل وحدها، فأدركت كم كان لياسر من دور في حياتها . وسألت نفسها :

(هل هو الحب ؟)

لم تهتد لجواب : الحب يزلزل النفس والكيان . ويشوش الحواس أحياناً . لكنه في أكثر الأحيان سبيل لوضوح الرؤية وإزالة الغبش .

لعل هذا الشعور مزيج من الصداقة والحب . ربما هو دواء للنسيان .

شعرت جويل بشيء من القلق والارتباك . الأخبار تأتي من الوكالات ، أو نقلا عن الوكالات . ولا اخبار طازجة من ساحة المعارك . واحتارت كيف تعوض هذه الخطوة الناقصة. وكان عليها أن تجد بديلا لأبي أرز وسعاد ، ولكن من أين لها إيجاد ذلك البديل ؟ والـ (كاميرا) المحمولة قد صودرت والأشخاص الثقة من الصعب إيجادهم بسهولة ، فانتظرت .

في يوم السبت تلقت اتصالاً من هواش قال :

الأب أنطون يريدك أن تحضري قداس الأحد . سأوصلك إلى الدير... سأكون أنا في سيارة (الرانج) منتظرا الساعة التاسعة . عند تقاطع الطرق في حارة الربيع ، اتعرفينها ؟

أعرف المكان ، وقد سبق أن وافيناك أنا وياسر في يوم ما ، فأوصلتنا .

إذن إلى اللقاء في الغد .

وخمنت .

(ماذا يمكن أن يكون وراء ذلك (؟)

فالأب أنطون ، لا يمكن له أن يدعوها دون سبب - الطريق طويلة وخطرة ، والمسألة ليست مسألة قداس ، وإذا تاها فلأمر هام .

يوم الأحد وحسب الموعد المضروب . كأنت عند تقاطع الطرق .

ووجدت سيارة (الرانج) تقف على زاوية من الطريق . فتحت الباب وصعدت فأقلع هواش مسرعا .

قالت :

ما الأمر ؟

أبو الحارث والقناقي ، يريدانك الأمر هام .

الا تعلم فحوى ذلك الأمر .

لا أظنني ملما بتفاصيله .

أعطني المجمل إذن .

يريدان تطوير البث في المحطة. وإرجاع الأخبار الطازجة من ارض المعركة كما كأنت سابقا ، وليس عندي تفاصيل .

لماذا القناقي مهتم بمحطتنا ؟ فإذا اعتبرنا أنك ومعك أبو الحارث متعاقدان مع المحطة، ولكما مصلحة ، فما مصلحة القناقي

بهذا ؟

- إن محطتكم قد قدمت للمقاومة والثوار خدمات حلى فعرفت بنا العالم، وصورت الدمار الذي لحق بالمدنيين، والكوارث التي قامت بها العصابات متخفية برداء الثورة والمقاومة. من مصلحة المقاومة أن يكون لها صوت ، ومن خلال فضائيتكم ، سمع العالم صوت المقاومين .

هكذا إذن فالمصالح مشتركة .

كل شيء بمقابل ، والمصالح المشتركة أدوم وابقى ، وهذا هو قانون الحياة . قلة من تعمل في جمعيات خيرية ولوجه الله ، ولكن الجميع يسعى لمصالحه. وإذا اقترنت مصلحة الفرد بمصلحة الوطن والمجموع . عد ذلك من المثل العليا والقيم المتألفة والمتوازنة.

أين تعلمت ذلك يا هواش ؟

أنا أستاذ المنطق والفلسفة وعلم النفس في جامعة بغداد.

تعجبت جويل أيما تعجب (وقالت :

ما بالكم أنتم العراقيون تتخفون، وقد نزلتم من أرفع الأماكن إلى أخفضها ؟ كنت أظنك مثل أبي الحارث ، ضابطا في الجيش العراقي السابق .

في سؤالك معنى الجواب . أنت قلت تتخفون وكل عراقي يتعرفون على مكانته العلمية والأكاديمية يقتل أما أنا القد خدمت في الجيش العراقي لسنوات ، ثم أصبحت أكاديميا ، بعد سنوات من

الدراسة ، والآن جاء دور أساتذة الثانويات في التصفية ، بعد أن قضوا على دكاترة الجامعات .

وصلا إلى الدير وقت القداس حضره الجميع بما فيهم سعاد وبديعة ، جلست على مقعد بجوار ، جبور القناقي . فمد يده مصافحا وتابعا الموعظة، شعرت بأن القنائي يلتصق

بها كثيراً ، حتى أنها شعرت بحرارة فخذه . كأنه يتقصد ذلك . أو ربما لأن المقعد الأمامي مكتظ بالجالسين .

أكمل الأب موعظته وقداسه ، ثم نزل من على المذبح مصافحا الحضور .

حتى وصل إلى مكان جويل . فحيته وقبلت خاتم الصليب في يده .

وتابع لبقية الحضور مصافحا . ثم دعاهم إلى إفطار خفيف في قاعة الطعام . بعد ذلك تفرقوا ، وبقيت جويل مع أبي الحارث والقناقي .

قال القنافي :

- لقد ركدت الأخبار قليلا في المحطة . وعلينا تنشيطها . ما رأيك ياجويل ؟ لو علمنا أبا الحارث وهواش التصوير في أرض المعركة .

واشترينا لهما (كاميرا) .

هذا ما كنت أفكر فيه . هل تستطيع تأمين الـ (كاميرا) ؟

نعم سأحضرها في الغد إلى هنا . وستقوم سعاد بتعليمهما كيفية

التصوير .

- نعم الرأي اتفقنا .

بعد برهة قال لها:

بالقرب من هنا نبع غزير بارد ، أصفى من الندى، وأحلى من

العسل ما رأيك لو نذهب إليه ؟

بودي ذلك ، هل المسافة بعيدة ؟

ليست بعيدة، ولكننا سنذهب بسيارة الرانج).

هل سيشاركنا أحد هذا المشوار .

لا ، أفضل أن تكون وحدنا ، لأني سأعرض عليك أمراً

وذهبا إلى النبع . لم يكن ليبعد كثيراً عن المصب في البحيرة ، التي سبحت بها مع ياسر منذ شهور . جلسا على جذعي شجرتين يابستين مقطوعتين بمنشار. تأملا النبع والظلال الوارفة المحيطة ، قال :

هل أعجبك المكان ؟

المكان ساحر، ولا يبعد كثيراً عن البحيرة التي عرفتها سابقا .

أنت قصدت البحيرة وتركت النبع . إذا أردت الفوز ، اقصدي النبع فهو الأغنى والأروع ، لولاه لما كأنت البحيرة والمصب . لا تقصدي المصب الذي فيه الكثير من التلوث ولا تضعي فيه أملا .

- هل يخفي هذا المعنى المباشر ، معنى آخر مستتر يحتاج لذكاء افتقده ؟

اعملي الفكر واشحذي البصيرة ، تدركين ما أعني .

أعلن عن قصدك بشكل مباشر ، فقد تعبت من التفكير ، أفضل الوجبات الجاهزة والسندويتش .

منذ أسابيع سبحت أنت وياسر في البحيرة . وركبتما الزورق .

وتلاعبتما فلاطفك ، وكان ما كان .

من أدراك بهذا ؟ لقد كنا لوحدنا يوم ذاك .

انظري إلى أعلى شجرة في هذه الغابة ، وأشار بيده إلى الشجرة البعيدة المشرفة على معظم أنحاء غابة الدير) . يوجد راصد يكشف المنطقة كلها ويوافيني بالتقارير ..

وماذا رأى أيضاً ؟

راكما تدخلان فوهة السرداب ، فاختفى عليه المشهد.

لقد فاجأتني واخفتني عندك دائة الاستطلاع قوية ومعلومات من الصعب الحصول عليها.

لهذا سنضع أيدينا بأيدي بعض اتركي كل شيء واتبعيني .

كما قال المسيح للصيادين : كما جاء اليوم في وعظة القداس ، فهناك مشروع عظيم أريد أن ابنيه واحتاج إليك .

تحتاج إلي وعندك كل الأموال، والكثير من الرجال . وتتوفر لديك دقة المعلومات الحينية التي تأتي في وقتها طازجة ..

الأمر يبدو هكذا . وعندك أنت أشياء لا تتوفر لي ولا أملكها .. احتاجها ليظهر للنور مشروعي من خلالك وبواسطتك .

لم أكن لأعلم أن عندي أشياء فريدة ، لا توجد حتى عند جبور هلا أخبرتني عن فحواها.

سأخبرك بها . سأعرض عليك مشروعا عظيما خطيرا ولكني سأبدي حيثياته وقاعدته المادية فيما سيأتي وبعد وقت قليل ولكن عليك أن تصدقيني القول: ما العلاقة التي تربطك بياسر الخوخة. هل هو حب ام مشروع زواج ؟

- لا هذا ولا ذاك إنه عاطلة صداقة. تعاطفت معه شلقة لما لم به من كوارث وخيانات وتساعدنا معا. كان هدفه البحث عن ولديه وأنا جنت هاربة من حب رجل ميت لم استطع التخلي عن ذكرياته ولا أنكر أن ياسر الخوخة ، قد عرض علي علاقة حب

جاملته بها وداورته ، في بعض الأحيان، ثم توقفت عن نسجها في أحايين أخرى ، ربما لم يحن الوقت بعد التبلور .

العاطفة الحقة يجب أن تكون مكتملة الأركان لا يكفي الإعجاب بالشكل الخارجي أحياناً نظنه حبا ، لأنه يكين يدافع (الليبيدو) والغريزة . نتوهم أن ثمة حبا قد حدث تكون الحقيقة أن الرغبة الجنسية هي الدافع وأحياناً النزوة .

ما أركان الحب المكتملة في رأيك إذن ؟

القناعة الكاملة بالشخص الآخر . وربط المصيرين ببعض ومن الصعوبة في أكثر الأحيان تحقيق ذلك ، لأن الإعجاب بالشكل الخارجي سهل، وأحياناً يكون خداعا . والمصالح المتبادلة أن توفرت تكون اشد رباطا ما دامت قائمة . ولا ننسى الاعتقاد بأن تلك العلاقة تؤمن الحماية للطرفين .

الرجل يؤمن للمرأة الحماية . فكيف (وهي الأضعف) تؤمن له

حماية . أو تشعره بأنها تحميه ؟

الحماية لا تعني الحماية المادية فقط . قد تحمي امرأة رجلا مشروخا من الداخل . تحميه من عذابات النفس وشروخها . تحميه من الضمير المنهك ، أو المعذب أو المتألم . من إخفاقات حدثت له فيما مضى تحميه منها .

- هل تجد أنت القوي يا قناقي ، يا صاحب العزة والغطرسة .

المتأتية عن المال والرجال وخبرة الحياة . أنك بحاجة إلى حماية امرأة مثلي فتسعى إليها .

نعم فمشروعي يحتاجك لحمايته ، بل ولظهوره إلى النور

الخدمة من ؟

الخدمة المثل والقضايا ، التي نناضل من أجلها.

امسكها من يدها ، وقال :

لنتمشى على ضفاف الجدول ، فعلى ضفافه نبتت أزهار مائية مثل زهرة اللوتس و الأوركيدا... أليس من المفارقة ، أن تنبت الأزهار في بلاد تعاني من الجحيم ؟

مشت معه وأمسك بيدها. شعرت بدفء غير عادي ، وبلمسة حنان مختلفة . ربما أكثر من دفء يد ياسر . ومازالا يمشيان ، حتى

وصلا إلى فوهة السرداب . توقفا قليلا عند الأغصان اليابسة التي

تغطي فوهته ، قال :

- ماذا يوحي لك المكان الصغير هذا ، ولماذا وضعت الأغصان اليابسة ، ككومة من حطب ؟

هذا تجاهل العارف . لماذا تسألني ، وأنت تعلم أنه فوهة السرداب ؟

أنت صادقة يا جويل ، وهذا يبشر بنجاح المشروع .

ليتك أفصحت عن مشروعك إذن !

بعد قليل ستعرفين كل شيء .

أبعد الأغصان عن فوهة السرداب .

قالت :

أنتبه الراصد على الشجرة ، يسجل في تقريره دخولنا .

ضحك من قولها وقال :

غيرت له المكان بحيث يرصد مدخل الدير، ولا يرأنا .

- يا لك من خبيث بل شيطان ! لقد أعددت لكل شيء عدته ودخلا السرداب وأخرج من جيبه مصباح إضاءة صغير في حجمه .

لكنه قوي في إضاءته . فبدا المكان أشد وضوحا . سار بها بعيداً في السرداب ثم انحرف إلى طريق ضيق ، أدى بهما إلى باب . أخرج من جيبه مفتاحا وفتح الباب ... كأنت غرفة واسعة كبيرة . فوجئت

عندما شاهدت أكداسا من الدولارات لا تعد ولا تحصى قدرتها بالمليارات . ذهلت ايما ذهول ! وأصابها خرس من المفاجأة !

قال :

هذه الأموال هي التي سننفذ بها مشروعنا المشترك .

إلى الآن لم توضح لي ما هو هذا المشروع .

هذه الأموال ستنقل إلى بيروت ... أنا عرف كيف أنقلها . لقد نقلت الكثير . النقود تحمي نفسها وتدافع عن ذاتها . سأضعها في بيروت في مصرف اجنبي باسمك . نعم باسمك أنت : لا تستغربي ذلك من الآن أنت شريكتي ، أعرف سلفا أنك توافقين . النقود لا يمكن قهرها . هي جبانة وماهرة في القرار، لكن من الصعوبة مقاومتها . سننشئ صحيفة أعظم وأهم من صحيفة أنطون شركس . وتهيئين أنت الكوادر بعد استقالتك من صحيفته ، وبعد إقلاعها وانتشارها سننشئ أيضا فضائية ، أهم وأكبر من فضائية انطون شركس .

وأنت ماذا تستفيد من كل هذا ؟ بإمكانك أن تضع الأموال في مصارف غربية . وتعيش منها ومن مردودها ، أنت وأبنائك وأحفادك ، فما هدفك إذن ؟

- أنا كعراقي ، لا يحق لي إصدار صحيفة في بيروت . ولا ترخيص فضائية ، وغايتي أن يكون للمقاومة صحيفة ومحطة ، تنطق باسمها . وتعمل لتهيئة الظروف المناسبة ، لبروز حكومة عادلة وطنية، ربما انشئ حزبا ، وفي هذه الحالة سيكون مكرسا للوطن وللحرية والعدالة .

لو أنا اخذت الأموال كلها بعد أن وضعتها باسمي في المصرف واختفيت وهذا سهل ، ولن تعرف مكاني ، ربما أغير شكلي وهويتي ،

واسكن في بلد لا تعرف أين يكون في هذا الكون !

- لن تفعلي ذلك ، لأنك ستكونين زوجتي ، ولقد أعجبت، بك منذ اليوم الأول للقائنا في هذا الدير ، وقلت لنفسي (لن تفلت مني هذه الغزالة).

لابد أن لك زوجة وأولاداً .

لا لم اتزوج حتى الآن. ولقد علمت أن الأب أنطون ، عندما ذكر لكم اسمي قال عني : إنني أحب النساء . وفي الحقيقة فإن العمل

الوطني ، أخذ كل وقتي ولم أتفرغ للزواج ، ربما عشقت النساء يوما . الآن تأتي الأقدار لتضعنا وجها لوجه . الإعجاب والمصالح المتبادلة وخدمة الوطن هي الأيديولوجية التي تربطنا الآن . وأعرف أنك ذات ميول يسارية ، وأنا في يوم ما كنت وما زلت أؤمن بالاشتراكية ، كطريق لتحقيق العدالة ، وتكافؤ الفرص ، فهل تقبلين عرسي هذا ؟ وهذه الأموال كلها لك وللمشروع .

صمتت ربما من المفاجأة التي أذهلتها ، أو ربما لتقليب الأمور ،

ولكن الأمور لا تحتاج إلى تقليب . فالناس يقلبون الأمور إذا كأنت تتأرجح بين الربح والخسارة ، أو كان ثمة احتمال ضئيل قد يؤدي إلى خسارة ، ولكن هذا العرض ليس فيه شيء من الخسارة. بل فيه كسب خرافي ، ومال يصعب جمعه ، ورجل ساقته الأقدار إليها ، أو ساقتها إليه - ربما لتعوض خسارة الرجل الأول ، التي ظنت أن ليس له شبيه وكأنت مخطئة ، لأنها الآن تعيد حساباتها ، رجل حنكته الأيام .

وأغنته التجارب قبل أن يغنى بأموال صدام الخرافية ، إضافة إلى أن له خبرة في فهم المرأة ، والعزف على احلامها . بدقائق قلب كيانها .

وأنساها ما كأنت به تحلم أو تفكر . نسيت الحب القديم ، والزوج القديم : نسيت ياسر الخوخة ، وتعلقه بها لدرجة كاد يبذل ماء وجهه في سبيل ذلك . شهور وما أفلح ياسر الخوخة في إقناعها ، أما الآن الهذا الرجل كعاصفة تزلزلها ، بل أكبر من ذلك ، إنه (تسونامي) حقيقي في هيئة رجل ، لا يمكن رد (تسونامي مزلزل ، لأنه تركها فوق أرض الذهول ، مسلوبة المقاومة . إنه رجل المقاومة البارع . المنتصر دوما ، فكيف لها أن تقاومه ؟ أمسكها من كتفيها ، وهزها قليلا ثم قال :

لماذا أنت صامتة ، أجيبي !

لا أدري ما أقول : الحواس عندي بفوضى وتحتاج لضبط !

اعتقد أنك موافقة .

اخرجها من مخزن المال ، وأغلق بالمفتاح . وقادها إلى ركن بدا مفروشا بالتبن . ثم وقف ثانية وكرر السؤال نفسه :

هل أنت موافقة ؟

نظرت إليه بعينين غائمتين مستسلمتين ، فاحتضنها بقوة وقبلها من فمها . كان الفم الكرزي المكتنز ساخنا . التهمه بقسوة لم

تتوقعها ، لكنها لم تقاوم بل شعر وكأن فرائصها ترتعد ، وتكاد لا تقوى على حملها ، فأنا قلت إلى الأرض وهو معها يحضنها أصبحا مضطجعين على التبن الجاف الناعم

تماما . كان التين طريا على غير المتوقع ، ربما شعرت بطراوته ، ففضلته على فراشها في مقر البعثة .

واعترته موجة هادرة حارة . لم يسبق أن شعر بمثل لظاها ولذتها .

فقال لها :

لتوقع عقد الاتفاق اذن .

لم تشعر بحياتها بلحظات أحلى من تلك اللحظات رغبة حميمية هائلة اجتاحتها ، وفرح لا يمكن وصفه . إنه الفرح العظيم ! شعرت وكأنها تذوب كشمعة تعرضت للهيب قاس وحار. فندت عنها تأوهات وحشرجات ، لكنها كالموسيقى التي تحلق في ثنايا النفوس المرهفة ، أما هو فكأنه يدخل النعيم لأول مرة فيذهل . لم يسبق أن شعر بما شعر به الآن وللتو . لكنه الآن بحاجة إلى قليل من الراحة . فاستلقى إلى جانبها على التين. وتوسد كتفها و جزءاً من صدرها ليصل إلى جزع ثديها . كان المصباح ما يزال مضاء . ينير جوانب كبيرة من السرداب . أصابهما الوسن فمرا بفترة تشبه حال النائم واليقظان ، وبعد غفوة صغيرة صحا ، وقال :

هل وقعت العقد ؟

نعم مثلما أنت وقعته !

إذن اتفقنا ... هلمي بنا لنعود .

خرجا من السرداب، ومؤها الحفرة ، ثم عادا إلى الأب أنطون

في الطريق ، قال لها :

هل تريدين من الأب أنطون ، أن يكللنا إلي هذه اللحظة ؟

سيكون ذلك في بيروت بعد الإيداع ، دعني أنا أعد الترتيبات بعناية ودقة ما بيننا الآن شيء كبير وخطير إنه حب حقيقي ومصالح مشتركة ، ففي القبو هذا اكتشفت خبر يا نفسي ، التي أذهلتني أكثر مما أذهلتني خفايا سردابك هذا.

في بيروت ، قابل ياسر الخوخة ، أنطون شركس الذي عرض عليه متابعة العمل في الجريدة، أو الانتقال إلى إعداد البرامج في الفضائية .

ففضل العمل في الجريدة بكتابة المقالات السياسية . كما كان يفعل سابقا ، فصار بعد مقالين في الأسبوع . لكنه كان مهتما أشد الاهتمام بأبي أرز ، ففضل أن يبقى إلى جانبه في داره ، على أن يعيش عند أبيه في الفيلا.

وفي مرة وقد دخل الدار بعد عودته من الجريدة، وجد أبا أرز يدفع إليه بقصيدة كان قد كتبها وكتب له على ورقة ليفهمه مراده، لأنه مازال عاجزاً عن النطق .

ما رأيك في هذه القصيدة يا ياسر ، هل تصلح للنشر ؟

جلسا معا إلى طاولة ، وقرأ ياسر بتمعن الصيدة أبي أرز . كأنت قصيدة جميلة ، تحمل شحنة عاطفية صادقة .

فقال ياسر:

سأنشر لك هذه القصيدة في جريدتنا

فرح ابو أرز فرحا عظيما، ظهر أثر ذلك على ملامحه وفي عينيه.

فهمهم لأول مرة بكلمات غير مفهومة تصدر عنه .

قال ياسر:

ها قد بدأ الصوت يتحرك في لسانك . وهذه بادرة تبشر بالخير

وببداية نطق .

همهم أبو أرز مرة ثانية، وبصوت بدا أفضل من المرة الأولى .

قال ياسر :

بعد يومين سآتيك بالجريدة ، وقد نشرت قصيدتك فيها .

بعد يومين حمل ياسر الجريدة ، التي نشرت فيها قصيدة ابي أرز وعاد بها إلى البيت ولما راها ابو أرز ، حشرج حشرجة قوية ، فهم منها ياسر بأنه يقول شكراً .

قال ياسر :

في الغد سنذهب إلى طبيب مختص لأعرض عليه حلتك ، بعد أن تحرك لسانك .

وعندما ذهبا في صباح اليوم التالي ، إلى عيادة طبيب اختصاصي ، وعرض عليه ياسر الحالة، وأنه بدأ ببعض الكلام . فحصه الطبيب بأجهزة الكترونية متعددة بعضها ليزري قال :

ليس به علة فيزيولوجية ، ولا يوجد أثر لأذية دماغية ، أو مشكلة في الحبال الصوتية أو الحنجرة . يبدو أن المشكلة مشكلة نفسية . والشفاء أصبح شبه أكيد ..

قال ياسر مخاطبا الطبيب :

هل تذهب للعيادة النفسية ؟

يفضل ذلك ، والدكتور غضبان البابلي هو أشهر الأطباء في هذا المجال ، سأكتب لكما كتاب توصية .

وفي عيادة الدكتور غضبان البابلي ، تم إبراء فحص دقيق لأبي أرز ، استغرق وقتا واسئلة كان يجاوب ياسر عنها بدل أبي أرز .

قال الطبيب النفسي :

يحتاج إلى صدمة فرح : لأن العارض النفسي الذي ألم به ، هو فاجعة فوق الاحتمال .

وصار ياسر ينشر له القصائد في جريدة انطون شركس ، حتى بلغت العشرين ، وفي كل مرة تنشر لأبي أرز قصيدة ، كان يفرح كثيراً .

ويتحسن قليلا في نطق بعض الأحرف ، قال له باسر :

- سأجمع قصائدك في ديوان شعر .

ففرح بل كاد يجن من الفرح من سماع الخبر . ونطق بكلمة (شكرا)

كأنت واضحة ، ونطقها بشكل سليم . كان الفرح باد على وجه ابي أرز . والذي فرح أكثر هو ياسر الخوخة . فلأول مرة يسمع كلمة صحيحة ينطقها أبو أرز .

وطبع الديوان ونشر وتم توزيعه على نطاق واسع . و عمل ياسر إلى أبي أرز اعداداً كبيرة منه . عند مشاهدة ابي أرز لديوانه المطبوع فرح وبكى، وعانق ياسر ، وصدرت منه بعض الكلمات.

شكراً يا أخي أنا مدين لك .

يا الله لقد حدثت معجزة (ليس مثل النجاح ما يداوي العلل : وليس مثل النجاح من يولد الثقة والأمل) وصار ابو أرز يتناتي حين النطق لكن المستمع إليه يفهم قصده، وفي يوم جاء اتصال مصدره

بيروت يقول فيه شخص :

ياسر أنا في مقهى اللحن الهادئ ، قرب البحر ببيروت ، ومعي

بديعة وسعاد . هل عرفت من أنا ؟

لم يصدق ياسر سمعه ، إنه القنافي نفسه . فما الذي أتى به إلى بيروت ؟ فأجابه :

- نعم عرفتك وسأوافيك إلى المكان .

ودخل إلى مقهى اللحن الهادئ فوجدهم جالسين إلى طاولة . عائق ياسر القناقي بشوق ومودة صادقة ، ولم يكن يعرف أن القناقي ، قد استولى على جويل واستسلمت له . وصافح بديعة وابنتها سعاد .

وقبلهما من الجبين، وفرح بوصولهما . لقد أوفى القنافي بوعده وحضر معهما . ولم يكن يدري ياسر أن أموراً تحاك دون علمه ، وان الطاولة بعد زمن ستقلب فوق راسه بفعل خيانة غير متوقعة من جويل - جلسوا إلى الطاولة يحتسون القهوة .

قالت سعاد :

ما اخبار ابي أرز ؟

لقد أصبح شاعراً ، ونشر في صحيفتنا العديد من القصائد . بل وأصدر ديوان شعر هو الأول . وسيصدر دواوين أخرى . وكل اشعاره موضوعها أنت يا سعاد ، فعلى يديك تعلم الشعر ، وأصبح إنسانا جديداً. لقد شفي قليلا من خرسه ، لكنه ما يزال يتأتى بكلامه وقال الطبيب النفسي : إنه يحتاج لصدمة مفرحة تعيد إليه كلامه .

قال القناقي :

الآن جاء وقت الصدمة الصاعقة المفرحة ! لنذهب الآن كلنا فنفاجئه في مقره، وعندما يرانا ستحدث تلك الصدمة .

لقد كان القناقي محقا فيما قال ، فبمجرد أن دخلوا الدار ، فوجئ ابو أرز بهم . تغيرت ملامحه وارتعش ، ثم قال كلاما مفهوما وبنطق سليم :

ما هذه المفاجأة المذهلة ، لم أكن لأحلم بأكثر من هذا ، لقد اتيتم إلي يا احبائي ، وهذا يوم المنى .

لقد نطق جملته بفرح قل مثيله ، وعاد إليه صوته ونبرته .

قال القنافي :

- لقد أنت سعاد وأمها بديعة ، لتقيم هنا في بيروت .

قال ياسر :

هذا هو بيتهم ، بيتي أصبح لهم . أما أنا فإنني سأبيت عند أبي في دارة خالتي جورجيت ، وستكون هذه الدار لأبي أرز و سعاد وأمها بديعة ، سآتي الآن بالشيخ حامد الأغبر، ليعقد عليهما ويتزوجا في الحال عندها تكتمل صدمة الأمل والفرح .

رقال القنافي :

إنك يا ياسر ، تفوقني راديكالية وجرأة وحرق مراحل . لك خيال بسرعة الضوء، ومع ذلك فهو واقعي ، فالذي قلته أنت لا يحدث حتى في الأفلام الهندية . لكنه ممكن الحدوث في مثل حالة سعاد وأبي أرز

واتصل ياسر بالشيخ حامد الأغبر، وأخبره بالأمر ، فحضر ومعه زوجته وأفراد أسرته. وعقد الشيخ حامد عليهما ، وقال :

من هذه الليلة أنتما زوجان على سنة الله ورسوله .

وأمر الشيخ حامد الأغبر ابنه حذيفة ، بجلب الحلويات والزهور . وسهر القناقي والشيخ حامد الأغبر وأسرته، وشهدوا الفرح الذي جاء بعد فاجعة ، وجاء أبو ياسر وجورجيت إلى الحفل البسيط بإمكانياته المادية ، الكبير بإمكانياته الروحية والمعنوية . لقد شفي ابو أرز .

واند ملت جروح سعاد ، وبدأت مرحلة جديدة من حياتهما .

تذكر ياسر قصيدة طاغور ، التي قرأتها له جويل في فندق بدير الزور، بعد أن صحا من كابوس . حيث كان يقول : (لقد خسرت كل الذي كسبته في يومي ... لكن بقي عندي شيء هو بسمتك . وفرارك إلى صدري كقبرة .)

ومن تلك الليلة ، صار ياسر ينام في بيت خالته جورجيت عند ابيه وبين ولديه ، بينما تابع القناقي نقل المال إلى المصارف . استعدادا لتنفيذ مشروعه مع جويل .

(١٢)

جاء إلى مبنى الجريدة، مندوب من نادي الشعر، قابل ياسر الخوخة ، واخبره بأن امسية ستقام بعد أسبوع ، في المركز الثقافي ببيروت . وسأله إن كان أحد من كادر الجريدة ، يود أن يشترك في الأمسية بإلقاء إحدى قصائده

قال ياسر سجل عندك اسم أبي أرز، واعتبره أحد شعراء تلك الأمسية . سيلقي بعض القصائد لأول مرة .

ولما قابل ياسر أبا أرز، وأعلمه بالأمر بدا مضطربا ، لأنه مازال يخاف قليلا من مرضه الذي شفي منه، لكن ياسر شد من عزيمته .

وقال بأن ظهوره في تلك الأمسية ، سيوسع من شهرته ويزيد إعجاب الناس به، فطريقة إلقاء الشاعر لقصائده ، و إيحاءاته ونبراته وحركاته ، تضفي على القصيدة ظلالاً ومعاني ، لا توجد بين السطور. وصار أبو أرز الذي حضر الكثير من منتديات الشعر ، يتمرن على إلقاء قصيدة اختارها ، وأعجب بها . وفي الموعد المضروب ذهبا معا إلى المركز الثقافي ببيروت، وكان في القاعة جمع غفير . فجلسا في الصف الأول حيث كان لهما مقعدين محجوزين باسمهما .

وصعد المنبر عريف الحفل ، وصار يقدم الشعراء الواحد إثر الآخر وكان دور ابي أرز آخر شاعر يلقي قصيدته . صعد المنبر متثاقلا .

عدل اللاقط ثم بدأ بإلقاء قصيدته ، كأنت تعابيره ونبرات صوته قوية ومعبرة . لقد عاش في تلك اللحظة إلهامه انفعالاً إيجابيا ، وكأن القصيدة تتنزل عليه لأول مرة ، من وادي عبقر . أو يكتبها لأول مرة، وقد جاءه إلهام مبهر. وشد أنتباه الجمهور الذي صفق له مرارا ، وعند نزوله من المنبر ، وقف الحشد إعجابا به . منذ تلك اللحظة.

اصبح ابو أرز سيد المنابر . وأصبحت له شعبية واسعة ، وسمعة عطرة في مجال الشعر . وعندما قابل انطون شركس ، قال له صاحب الجريدة

سأخصص لك زاوية أسبوعية في جريدتنا ، تكتب فيها شعراً ، او خواطر او نثرا ، فأنت يا ابا أرز قد أصبحت شخصية ادبية مرموقة.

قال ابو أرز :

- أريد أن أطلب منك أمرا آخر، عسى أن تلبيه .

اطلب يا أبا أرز ، فطلبك ملبي .

- زوجتي سعاد ، كأنت تعمل في تلفزيون بغداد فيما سلف . وقد صورنا العديد من المعارك الحية معا ، في ساحات القتال ، ونقلناها إلى فضائيتكم في بيروت. وقد علمت ما جرى لنا مع قوات الاحتلال . أرجو أن تعود سعاد لعملها ، الذي تحبه في محطتكم هنا ببيروت. لا من اجل المال ، وإنما من أجل العمل الذي هو جوهر الإنسان ، ومصدر صقل شخصيته . إن الفراغ قاتل ، وهو العدو الأول للإنسان .

اعتبر ذلك الأمر مقضيا يا أبا أرز ، ومن الغد ستداوم سعاد في فضائيتنا في بيروت ، وستستلم عملها وهي مشكورة . فلقد قدمتما للمحطة، وسط لهيب المعارك وجحيمها أعمالا لا تقدر بثمن . ومهما فعلنا فلن تجازيكما ، ولن نرد الجميل .

شكر ابو أرز انطون شركس. واصبحت سعاد من تعداد كوادر الفضائية تلك . لقد تعافى أبو أرز من آلامه ، وأصبح هو وزوجه من العاملين والفاعلين على مستوى الحياة في بيروت . حقا يمكن تعويض كل خسارة إذا كان للإنسان افق رحب ، وأمل خصب يرافقهما إرادة وايمان .

لم يكن في يوم من الأيام ، يحلم بأن يكون شاعراً، كأنت موهبته من الخبايا الغامضة ، التي سكنت عقله اللاوعي ، مثلما كان تحول جويل في حبها للقناقي من الخبايا الغامضة ، في سرداب اللاشعور ذو العتمة المبهرة أيضا .

سر ياسر الخوخة بالنجاحات ، التي حققها أبو أرز، وكأنها نجاحاته الشخصية . وتفرغ الآن لولديه وأمضى أوقاتا حلوة وجميلة في الدارة ببيروت الشرقية وسعدت به جورجيت كابن . لقد ضحك لها الزمان اخيرا . وتجاوزت محنتها هي الأخرى .

وفي إحدى الأمسيات ، قال له والده وبحضور ولديه وخالته :

بيروت . ارغب في أن يتابع ولداك دراستهما ، في الجامعية الأمريكية في

قبل أن يجيب ياسر أباد ، اعترض ثائر وقال :

لا أريد أن أدرس في الجامعة الأمريكية !

قال جده :

ما الأسباب والموانع ؟

- لقد أصبحت اكره كل شيء أمريكي ، حتى لو كان في ظاهره مفيدا . وسبب ذلك، الأحوال التي شاهدتها في العراق والارتكابات والانتهاكات التي اقترفها الأمريكان وحلفائهم .

قال جده :

علينا يا بني أن لا تعمم ولا نتطرف. فليس ذلك من الحكمة في شيء . مشكلتنا نحن العرب بل سكان العالم الثالث ، مصابون بالتعميم ، وليس عندنا حل وسط، إما نكره الكرد كله ، أو نحب الحب كله . مع أن نبينا (ص) قال : (أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وابعض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما (علينا أن نفرق بين الشعب الأمريكي من جهة ، وحكومته الحالية التي احتلت العراق من جهة ثانية ، فلقد تظاهر بعض الأمريكيين ضد بوش وحكومته منذ البداية ، ثم تفاقم التنديد .

فشمل الكثير ممن شجبوا الغزو التطرف بغيض ، والكره بغيض . علينا أن نتجاوزهما بالعلم والوعي والحكمة . فاليابان تفوقت على العالم بالعلم والعمل . لا بالحقد والثأر أو دق طبول الحرب ، علينا أن

نأخذ كل ذلك بعين الاعتبار ...

قال كفاح :

نود أنا واخي ، أن نعيد دراسة البكالوريا في سوريا ، وأن نجمع علامات ونتفوق ، لندخل كلية الطب في بلدنا . والجامعات السورية مشهورة بقوة علمها . وإذا ما تخرجت ومعي اخي من تلك الكلية فيمكن لنا أن نتابع اختصاصنا في بيروت أو غيرها .

قالت جورجيت :

نعم الرأي ، ما دمتها مقتنعين ومؤمنين بفكرتكما ، بعد أيام جلس ياسر مع أنطون شركس ، يشربان القهوة في مكتبه ويتنادمان .

لقد أحب انطون ياسراً، لصدقه وتفانيه في العمل ، إضافة إلى افكاره

المبدعة في التطوير والتحديث

قال ياسر :

هل أرسلتم كادراً جديداً إلى المنطقة الخضراء في بغداد .

لتبديل ما تبقى من الطاقم القديم ؟

قال انطون شركس :

بعد أيام سيسافر الطاقم الجديد بالطائرة إلى بغداد. ليتدرب بحضور الطاقم القديم ، على آلية العمل. وبالمناسبة فإن النشاط قد عاد للمحطة في بغداد ، وعادت لسبقها الصحفي ، ايام أبي أرز وسعاد . إنها تبث كما كأنت أخبار المعارك الطازجة ، ويبدو أن أبا الحارث ومعاونه هواش ، قد انجزا أعمالاً تضاهي ما انجزت سعاد وابي أرز .

قال ياسر :

لقد كنا محظوظين بالتعرف إلى أبي الحارث وهواش ، وقد عرفانا بالقناقي .

قال انطون شركس :

- هل تعلم أن القناقي قد ادخل إلى لبنان الكثير من أموال المصرف المركزي العراقي السابق . والتي تسمى بأموال صدام ؟ لقد ساعده بعض المتنفذين اللبنانيين ، و لقد وضعت تلك الأموال بأسماء عدة اشخاص وبيضت، إن للقناقي طموحا عظيما ، وغير محدود . لا

تستغرب أن يستلم في يوم ما رئيس حكومة العراق .

الهذه الدرجة من الأهمية هو ؟

المال يصنع المناصب ، ويأتي بالسلطة، والسلطة بدورها تأتي

بالمال .

ثم اردف انطون شركس :

في العالم الثالث على الأقل ، يحدث هذا !

وفي العالم المتحضر أيضا ، لكن من خلال التسرب من ثغرات القانون، ومن يكشف فلا أحد يساعده أو ينصره .

عندهم هناك للقانون سيادة ، تطال أعلى الرؤوس : ولو بعد سنين . أما في العالم الثالث ، فالقانون ضعيف، والجزمة ذات الساق

قوية تلجمه، فيصبح أمامها كخيط العنكبوت

ضحكا وقال ياسر :

متى تتقزم تلك الساق ، ويصبح القانون هو السيد الطلق ، فلا

تكون سلطة فوقه .

- سيأتي ذلك اليوم، وكلما زاد الوعي اقترب أكثر .

عاد القناقي إلى بغداد ، بعد أن أجرى ترتيبات هامة في بيروت .

الصالح مشروعه الطموح ، لقد كأنت جويل حجر الزاوية ، في ذلك المشروع ، لذلك منذ وصوله ، أوعز لهواش بأن ينقلها في صباح الغد إلى دير الأب أنطون. ونام هو تلك الليلة في الدير . وعندما اتصل بها هواش يخبرها بالأمر ، فرحت وأرادت أن تعرف من القنافي ، الخطوات التي عملها، والترتيبات التي نفذها في بيروت ، فقد غاب عنها ما يقرب الشهر ، لذلك أسرعت إلى سيارة هواش ، فوصلا في الصباح إلى الدير ، كان القنافي قد استيقظ مبكراً وليس أحلى ما عنده ولما وصلت استقبلها بالمصافحة والعناق الذي تعارف عليه اللبنانيون - ثم قادها إلى غرفته في الدير. وكان الأب أنطون ما يزال نائما . لأنه كان

قد أصيب بنزلة برد .

جلسا في الغرفة إلى طاولة ، فقال لها :

إن ما قمت به بغياب ياسر هو عمل جيد. وقد وصل إعجاب

انطون شركس بك إلى أعلى حد .

المهم إعجابك أنت ، لا إعجاب انطون شركس. ما آخر الترتيبات

التي قمت بها في بيروت .

في حسابك الآن مئة مليون دولار ، هل يكفي هذا ؟

لكن القبو كان فيه عشرات المئات .

سوف تدخل كل الأموال تلك في حسابك ، لكن بالتدريج ، حتى لا تلفت الأنظار .

ما آخر الأخبار؟

تزوج أبو أرز من سعاد ، في اليوم الذي وصلنا فيه ، وقد أقيمت حفلة حضرها الأقرباء ، وتم الزفاف بعد أن كتب الشيخ حامد الأغبر العقد . نسيت أن أقول لك : إن أبا أرز أصدر ديوان شعره الأول وأصبح يتكلم كما كان سابقا ، وقد شفي من صدمته ..

قالت جويل :

لم تعد هذه الأخبار تهمني كثيراً، وإن كنت قد سعدت السماع نبا شفائه .

أريد معرفة الخطوات ، التي ستنفذ قريبا في مشروعنا العتيد .

والخطوات المالية والفعلية التي رتبت.

الأمور تسير بخير ، لكن علينا أن نلتقي كثيرا في الدير ، على الأقل أربعة أيام في الأسبوع .

أخاف أن تكون تحركاتي مرصودة ، فأكشف لكم المكان .

- لا اعتقد ذلك فاحتياطاتنا الأمنية في منتهى الجاهزية واليقظة . أين تريدين أن نمضي اليوم ؟

كما تريد أنت .

سنقيم حفل شواء على شط البحيرة ، وتسبح بها قليلا .

اخاف أن يراني الراصد !

لن يراك أحد وأنا معك .

وذهبا بالسيارة إلى البحيرة ، سبحا ولاعبها فازدادت رقة والقا .

لقد نسيت ماضيها أو تناسته. لا تذكر الآن إلا حلمها الجميل القادم .

والأيام الماسية التي بها تحلم . أشعل لها النار ووضع اللحم في السعود وعاونته في كل تلك الأعمال ، بعد الانتهاء من الغداء قالت :

لم أتناول طعاما في حياتي ، بمثل لذة هذا الطعام ..

كل ذلك بفعل الحب ..

لم تسر كثيراً كما ينبغي ، لأنها عرفت أن علاقتهما حيكت بعد

خيانة.

عندما عادا ، كان الأب أنطون ، قد استيقظ من رقاده ، فزاراه في غرفته ، واطمئنا على صحته ، ثم غادرت مع هواش إلى مقرها .

توالت اللقاءات وازداد الإعجاب . لأول مرة يشعر نحوها بانجذاب لا

مثيل له . وهي أيضا عاشت بداية حب ، تمنت له الازدهار .

وصل الكادر الجديد للمحطة ، واستلم العمل من جويل ، وسيحل محل كادرها قريبا ، فقامت بتدريبه أحسن قيام ، وكان رئيس المحطة

الجديد مدين الأبرش، قد عمل في هذا السلك في أكثر من محطة .

لذلك كان فريقه سريع التعلم .

تعرف أبو الحارث على الطاقم الجديد ، لكن القناقي ، لم يشأ أن يظهر على الشاشة ، أمام تلك البعثة الجديدة ، وفضل أن يبقى في الظل . حتى إنه قال لأبي الحارث :

لا تطلع مدين الأبرش، ولا أيا من عناصره على عملكما ، ولا تدلهم على مكان الدير ، فنحن لا تعرف الطاقم الجديد تماما .

وان وقت عودة جويل والفنيين معها إلى بيروت، وقد جهزت الأوراق ، واخذت موعداً على طائرة متجهة إلى بيروت ، وآخر يوم كان لقاؤها بالقناقي في دير الأب أنطون . هذه المرة هي من طلب النزول إلى السرداب . لم يعرف القناقي غرضها من النزول : هل لتلقي نظرة على الأموال ، إن كأنت قد بقيت في مكانها ؟ أم أن القناقي قد نقلها كلها إلى مكان آخر ؟ أم كأنت الغاية تأكيد الاتفاق ، الذي وقع بينهما وتمتين العلاقة الحميمية ، ولاسيما أنها ستغادر ، ولا تعلم متى تلتقي به. ولما نزلا للسرداب ، لم تجد مالا بل وجدت التين يملأ المكان ، وعلى كل كان اللقاء حاراً وحميميا على فراش من تبن ، لأنه كان أيضا آخر يوم في دير الأب انطون، هذا الدير الذي شهد اجمل ايام حياتها. وسردابه الذي أشعل رغباتها، التي ظنت أنها لن تعود، وشهد أيضا تناقضاتها وغموضها وضياع هدفها ثم اخيرا ما ظنت انه الهدف الذي تبحث عنه ، لقد شهد السرداب أيضا خيانتها لياسر . لم تعرف

خباياها الغامضة إلا امام خزنة المال ، التي قطعت تلك الخيوط الواهية ، وكأنت تظن أنها من فولاذ ، ولكنها كأنت أوهى من خيوط العنكبوت . لقد اكتشفت أخيرا أن الزمن

الآن هو زمن القناقي بلا منازع ، وأن السرداب الآن هو سرداب الرغبة ، والتغييرات غير المتوقعة .

تمت